صوفي الهوى
د/ علامحمد صقر
حُب
دار تغاريد نسر للنشر والتوزيع

l

صوفى الهوي
في حميثرا سوف تري

بقلم الدّكتور✍
علا محمد صقر

تنويه

0

الحكمة ضالّة المؤمن, فحيث وجدها فهو أحقّ بها

إنّ أفضل الهديّة, أو أفضل العطيّة الكلمة, من كلام الحكمة, يسمعها العبد ثم يتعلمُها, ثم يُعلّمها أخاه، خيرٌ من عبادة سنةٍ، وقال لقمان لابنه : يا بنيَّ عليك بمجالسة العلماء، واسمعْ كلام الحكماء، فإنّ الله يحيي القلب

المقدمة

السّلام على القارئ بعدي, ورحمة الله وبركاته، والسّلام علي ساكن المدينة, والقلوب قبلها ورحمة الله وبركاته، وصلى الله عليك يا رسول الله, أفضل وأزكى, وأسنى وأعلى, صلاة صلّاها على أحد من أنبيائه, وأصفيائه، أشهد يا رسول الله أنّك بلغت ما أرسلت به، ونصحت أمّتك, وعبدت ربك حتي أتاك اليقين، كنت كما نعتك الله تعالى في كتابه الكريم ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[1] فصلوات الله, وملائكته, وأنبيائه ورسله, وجميع خلقه من أهل سماوته, وأرضه عليك يا رسول الله ﷺ.

في هذا العصر الذى أخذت فيه الأرض زخرفها وزينتها, من العناصر الماديّة، وقامت فيه الحضارة الأوربيّة علي المنهج الحسي المادّي, ولا تكاد تعترف بغيره من المناهج، ما زال في البيئات الإسلاميّة، والحمد لله، طوائف من أصحاب الفطرة السليمة, الذين يرجون للبشريّة مستقبلًا يضرب بأسهم وافرة في عالم الخير, والحق , عالم الدّين, والرّوح، عالم الإخاء,

---

(1) سورة التوبة:128.

والإيثار.

وهذا العالم الذي تنبع أصوله من وحي السّماء، والذي يسير أفرادًا، أو جماعات هادفًا إلى تحقيق المنهج الإلهي، والمبادئ الإلهيّة، يمثله أضووا ما تكون النماذج، أئمة التّصوّف، وأعلام الصوفيّة.

إنهم يمثلونه في المنهج الذي اتبعوه، ويمثلونه كحقائق واقعيّة في المبادئ والقواعد، إن حياتهم منهجًا وموضوعًا تترسم التربيّة الإلهيّة، وهدي الرّسول ﷺ فيما عَظُم من الأمور، وفيما هو سهل يسير.

وهم يحاولون ما أمكن أن يكونوا بقدر الاستطاعة ورثة الأنبياء علمًا، وورثة الأنبياء سلوكًا، وورثة الأنبياء أحوالًا ومقامات، بيد أنّ بعض النّاس لا يتبين في وضوح معني التّصوّف، ولا مدي الصّلة بينه وبين الإسلام والتّصوّف.

إن صلة التّصوّف بالإسلام منهجًا وموضوعًا، لا يتأتى فهمها صحيحًا إلا إذا عرفنا التّصوّف تعريفًا، ينطبق علي حقيقته أكمل ما يكون الانطباق، بيد أنّ تعريفه ليس من السّهولة بمكان، فإنّ من الصّعوبة بمكان أنْ يقف الإنسان منها موقف الحكم، يفضّل بعضها علي بعض. ويجعل بعضها في المرتبة

الأولي، ويجعل البعض الآخر ثانويًا، ثمّ ينتهى بتعريف جامع مانع.

ما المقياس؟ وما الفيصل؟ ثم بأي سلطان يتدخل الإنسان بين هؤلاء القوم ذوي المزاقات الرّقيقة، والمشاعر الرّوحيّة الدّقيقة؟ أبسطان العلم، أم بسلطان العقل، أم بسلطان الرّوح؟

وإن عجز المنهج العلمي المادي عن دراسة التّصوّف في حقيقته، وجوهره. وعجز المنهج العقلي كذلك. فإنّ الصوفيّة جميعًا وفلاسفة الإشراق إلى الأن يعلنون منهجًا محدّدًا, يقرونه جميعًا، ويثقون فيه ثقة تامّة. هذا هو المنهج القلبي. أو المنهج الرّوحي, أو منهج البصيرة. المنهج إذًا منهج إسلامي, صحيح, سليم, لا غبار عليه..

يقول حجة الإسلام الإمام الغزالي: وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور, لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره؛ لينتفع به: أنّى علمت يقينًا أنّ الصوفيّة هم السّالكون لطريق الله خاصّة، وأنّ سيرتهم أحسن السّير، وطريقهم أصوب الطّرق، وأخلاقهم أكمل الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين علي أسرار الشرّع من العلماء؛

ليغيروا شيئًا من سيرتهم, وأخلاقهم، ويبدّلوه بما هو خير منه, لم يجدوا إليه سبيلا.

فإنّ جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم, وباطنهم مقتبسه من نور مشكاة النّبوة، وليس وراء نور النّبوة علي وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها وهي أول شروطها تطهير القلب بالكليّة عما سوي الله تعالي؟. ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصّلاة استغراق القلب بالكليّة بذكر الله تعالى، وأخرها الفناء بالكليّة في الله تعالى.

والمنهج إنّما هو تزكيّة النّفس، أو إجلاء البصيرة.

كيف يتأتى ذلك؟

يقول الإمام الغزالي معبرًا عن الرّأي الصّحيح المبنيّ علي التّجربة نفسها :

ابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم, وكلام مشايخهم حتي اطلعت علي كنه مقاصدهم العليّة، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلّم والسّماع، فظهر لي ان أخصّ خواصّهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلّم.

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزّهد, وشروطه, وأسبابه,

وبين أن يكون حالك الزّهد، وعزوف النّفس عن الدّنيا.

فعلمت يقينًا: أنّهم أرباب أحوال، لا أصحاب أقوال، وأنّ ما يمكن تحصيله بطرق العلم فقد حصّلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسّماع والتعلّم، بل بالذّوق والسّلوك.

والصّوفي: عابد، زاهد، علي خلق كريم، ولكنّه يتجاوز ذلك كلّه إلي شيء آخر, وهو: الإرادة, والرّياضة؛ لتحقيق المعني الجليل للآية القرآنيّة الكريمة: ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾[(1)].

فالإنسان يفرّ إلى الله من الكفر إلى الإيمان، ويفرّ إلي الله من الطّاعات إلى القربات، ويفرّ من الكون إلى المكوّن، ومن النّعمة إلى المنعم، ومن الخلق إلى الخالق. ومن نفسه إلى ربّه.

إنّ الفرار إلى الله لا نهاية له؛ لأنّ التّرقي لا نهاية له. وكما أنّ الفرار إلى الله مستمّر دائم. فإنّ الهجرة إليه سبحانه وتعالي مستمرّة دائمة.

يقول الإمام الغزالي: إذا تولّى الله أمر القلب فاضت عليه الرّحمة، وأشرق النّور في القلب وانشرح الصّدر، وانكشف له سرّ الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرّة بلطف

---

(1) سورة النجم:42.

الرّحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهيّة. فليس علي العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجرّدة، وإحضار الهمّة مع الإرادة الصّادقة, والتّعطّش التّام، والتّرصّد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالي من الرّحمة.

روى البخاري في صحيحه حديثًا قدسيًا عن أبي هريرة Δ، عن رسول الله ﷺ، عن ربّ العزّة جلّ وعلا :

"مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأعيذهن"[1].

---

(1) صحيح البخاري، كِتَابُ الرِّقَاقِ، باب التواضع، حديث رقم: 16502).

استهلال

أُوثق معكم رحلتي إلى مقام العارف بالله قطب الأقطاب – علي عبد الله بن عبد الجبّار – ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب ¢, وعن أمّه ورضى قلبها علينا، بعد أن منَّ الله علي بالرّجوع إلى غرفتي المتواضعة بمنزلي سالمة غانمة.

كانت الرّحلة ليست بالسّهولة اليسيرة, ولا الصّعوبة العسيرة, ولكن كانت كما قال الله تعالي: **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)}**[1] فصاحبتني هذه الآية الكريمة, حتي وصلت إلى أحضان أهلي, بعد رحلة دامت خمسة عشر يومًا بلياليهم.

منذ ثلاث سنوات, تعرّفت علي فتاة عبر موقع التّواصل الاجتماعي تدعي – غادة – وتسكن مدينة قنا, ودام حديثنا طوال هذه المدّة, ولم نرى بعضنا البعض, إلا عن طريق مكالمات الفيديو, وفي يوم الثّلاثاء 10 يناير 2023م, أبلغتها بأنّي قادمة إلي المدينة, وذهبت وقتها إلى محطّة القطار؛ لحجز تذكرة

---

(1) سورة الشرح:5.

القطار المتوجّه إلى الصّعيد وركبت القطار من محطّة مصر يوم الجمعة 13 يناير- 20 جمادى الآخر في تمام السّاعة العاشرة مساءً, ووصلت في صباح اليوم التّالي (السّبت) وتوجّهنا إلى سكنها الجامعي, والنيّة كان بها زيارة مدينة قنا والأقصر فقط لا غير, حتي يجد بالأمر جديد، مكثت اليوم الأوّل, وزرنا النّيل, والتقطت بعض الصّور علي شاطئهِ, وعدنا إلى السّكن, وشعرت بخنقة شديدة وتساءلت ما الذي يحدث؟! لِما كلّ هذه الخنقة؟ يومها سهرت إلي الصّباح لم تغمض لي عين, وأتساءل أهذا مكاني المناسب؟ كنت قادمة لكي أرتاح وأُسقط همّ التّفكير من على عاتقي، ما الذي حدث؟ أتذكرت ما يشردني! أم هذا ليس مكاني المناسب؟ واستلقيت علي سريري, ووجّهت وجهي لسقف الغرفة ودعوت الله, لا تكلني للتّفكير, ودبّر الأمر فإنّي لا أُحسن التّدبير، ونمت حتي أتاني منام أيقظني منشغلة البال, أتاني أحد يذكر أبا الحسن الشّاذلي، أبا الحسن الشّاذلي! من هذا؟

وسرعان ما تذكرّت أنّي كنت أتحدّث مع شخص عزيز علي القلب يدي– وذكر اسمه لي, وقال وقتها: إنه مشتاق لزيارته, وأوصاني بالدّعاء له بقضاء طلب الزّيارة, وأنشد لي بصوته الرّاقي

" يا برقُ قبل وصولنا حميثرا... بلغ سلام العاشقين معطّرا " وفي الحال دعوت الله له بالزّيارة, ولا أعرف من هو أبو الحسن الشّاذلي؟ وما الذي يمثّله له؟ ولِما كل هذا الشّوق له؟ فتبسّمت وقتها, ثم قلت: عجبًا أدعوك يا الله بلسانه فتأتي في، كيف سأذهب له الآن, وأنا لا أعرف أيّ الأماكن يسكن؟!

فات اليوم, ولم يشغل بالي هذا المنام, وذهبت في جولة في المدينة وقمت بزيارة سيدي - عبد الرّحيم الجنائي أو القانوي – وذهبت بعدها إلى النّيل؛ حيث إنّي أعشق المياه والخُضرة, وأستشعر نقاء الهواء والماء, والنّظر إلى السّماء وهي صافية, وعندما عدت إلي السّكن ليلًا عاد شعور الخنقة مرة ثانية, فطلبت من – غادة – أن تحضر لي فنجان قهوة, وخرجت إلى شرفة الغرفة, واصطحبت معي سُبحتي وفنجان القهوة, وجلست أنظر إلى السّماء, شعرت وقتها براحة, ولكن عقلي خاطب قلبي, وقالا في حوارهما: هذا ليس مكاننا, ولا العقول تشبهنا, ماذا نفعل هنا؟! نحن نريد الصّفاء والهدوء والسّكينة، مكثت أيامًا, ولم يفارقني شعور تلك الخنقة, عندما أعود إلى السّكن.

أتي يوم الأربعاء 18 يناير- 25 جمادي الآخرة وعاد المنام مرّة

ثانية, استيقظت في حيرة شديدة مرّة ثانية – أبو الحسن الشّاذلي – ما قصّته؟

وسرعان ما هاتفني أستاذ لي, وأبلغني بعمل بحث عن – أبي الحسن الشّاذلي – فرددت عليه في لهفة مين؟! أبو الحسن الشّاذلي! أين مكانه؟ وكيف أذهب إليه؟ وكأني متلهّفة لزيارته, ولكن لم أعرف كيفية الوصول إليه، مكثت اليوم أفكر في مكانه, وكيف أذهب إليه, والأصعب من ذلك ماذا سأقول لأهلي؟! إلي أين؟ ومعَ مَن؟ لم يُغمض لي جفن في هذه الليلة، أشعر أنَ الحمل زاد, وأنَ الهمَ ثقل, فخرجت إلي الشرّفة, ونظرت إلى السّماء, وتحدثت نفسي, ماذا أفعل؟! إلى أين؟! أعلم أنك يا ربِ لن تضيعني, ولكنّ الحمل ثقل, وانطلق لساني قائلًا: فوق الطاقة يا رب ساعدْني، أصبحت في يوم الخميس 19 يناير- 26 جمادي الآخرة, أقوم بوضع أغراضي في حقيبتي فجأة, وأعزم علي العودة إلي المنزل فورًا, واستيقظت – غادة – وانتابها شعور من الفزعة, وبدأت في البكاء، كانت تبكي كل ليلة, ولكن هذه المرة مختلفة, بدأت في الصّياح، هدّأت من روعها, وطلبت منها عمل قهوة, وبلّغتها أنّنا سوف نذهب إلي الأقصر؛ لزيارة المعابد هناك، وتوجّهنا إلي مجمع السّيارات في تمام السّاعة

الثّامنة والنّصف صباحًا, وهناك لمحت بطرف عيني لافته مكتوبٌ عليها " موقف البحر الأحمر", فعاد التّفكير في كلام استاذي لي عن – أبي الحسن الشّاذلي – ذهبنا إلى الأقصر, واستمتعنا باليوم

ومن تلقاء نفسي هاتفت أبي, وطلبت منه رقم ابن عمي يدعي: عبد الله, يعمل مهندسًا بالغردقة, فسألته عن حميثرا, فاستغرب الاسم, وقال: أوّل مرّة اسمع هذا الاسم, سوف أسال عنه أحد العمّال الذين معنا هنا، وتواصلت معه حتي عرف من أحد العمّال ويُدعي – عم أحمد – من مدينة قنا, أنهم يزورون ضريحه كل عيد أضحي, وأنّه ذهب إلي هناك كثيرًا, ولكن لا توجد مواصلات إلى هذا المكان, والوصول إليه أصعب ما يكون, فأخبرني – عبد الله – فانتابني شعور من الحيرة, ماذا سأفعل الآن, وأنا فتاة عشرينية, ليس معي غير الله؟ الأمر صعب للغاية, فعزمت وتوكّلت علي الله, الواحد الأحد, وسألته كيف أذهب إلي هناك؟ وقلت له: اشرح لي الطّريق.

أخبرني بأني سآخذ أتوبيس مرسي علم من قنا في تمام السّاعة الرّابعة والنّصف عصرًا, ينطلق من موقف البحر الأحمر, بعد حجز التّذكرة الخاصّة به, والذي سيصل إلي مرسي

علم بعد ستّ ساعات, أي: في تمام السّاعة العاشرة مساءً, وقتها تذكّرت صديق لي يدعي – أحمد الأنصاري – منشد فرقة نور النّبي الصوفيّة تحت إشراف – الأستاذ/ عبد الله بكير – وكنت أعلم أنه يقيم رحلات إلى حميثرا, فخطر ببالي أنْ أسأله عن الحال هناك, وكيف أصل؟ ولكن عندما هاتفته صعّب الأمر عَلَيّ أكثر من قبل, ذكر لي طريقًا مرعبًا للغاية , حيث قال: " تتنزلي مرسي علم, عند سيدي سالم, وهتا خدي عربيّة من هناك, ستوصلك لسيدنا أبي الحسن الشّاذلي "

أخبرته أنّي بمفردي فاستعجب – وقال: أحسنِي النيّة, وسيرسل الله لك المدد والعون, فانتابني شعور من الخوف الشديد, وقلت في نفسي: وبعدين؟ وفي يوم الجمعة 20 يناير- 27 جمادى الآخرة وصلنا موقف البحر الأحمر, وجاء الأتوبيس, وودّعت غادة, وصعدت الأتوبيس, وهنا قد انتهي دورها, وبدأ دور عبد الله وعم أحمد, وأحمد الأنصاري -أخبرني عبد الله أن عم أحمد تحدث مع بنتين تعملان بالتمريض واسمهما هدير, وهبة يستضيفوني في منزلهم في مرسي علم, لحين مغادرتي إلى حميثرا، وصلت إلي مرسي علم في تمام السّاعة الثانية عشر بعد منتصف الليل ونزلت بساعة انتظار موقف مرسي علم حتي

أتت إليّ هدير وأختُها هبة, ووصلنا إلي المنزل, وأخذتا تحكيان لي عن تجربتهما في قرية الشّيخ الشّاذلي, وهذا كان اسمها, واتضح من حديثهم أنها: قرية فقيرة بالنّاس والذّات, وأنّها بيئة غير صالحة للعيش, وأن طعام الضّيوف عندهم عبارة عن " عسل وجبنة, وفول أو عدس " وهذا بالطبع لا يطيقه انسان لا يعيش بداخل المدينة, فهذه طبيعة قاسية, فانتابني شعور من الخوف, هذا طعامهم! كيف سأتعايش معهم طوال المدّة التي سأقيمها هناك؟

تحدثت نفسي, وقالت: ستجري تدابير الله تعالى, وطالما وصلنا إلى هنا, فالله له حكمة, وتوضأت وصلّيت, وذهبت إلي فراش النّوم, واستيقظت في تمام السّاعة السّادسة صباحًا, وكنا في يوم 21 يناير- 28 جمادي الآخرة توضأت وأديت فريضة الصّبح, وارتديت ملابسي وهاتفت – أحمد الأنصاري – تحدث معي عن الطّريق مرّة أخري, حتي بكيت من كثرة القلق, وتحدث لساني ناطقًا قائلًا: صعب الأمر وزاد الحمل, والله فوق القدرة، هدئ من روعي, وأخبرني بأنْ أصلي ركعتين لله, قبل التوجّه إلي موقف السّيارات, فأغلقت الهاتف, وصلّيت ودعوت الله أنْ يمدني بالمدد, الذي أمدّ به رسولنا الكريم, المبعوث رحمة

للعالمين, وأصحابه النجوم, وآل بيت النّبي ؑ, وأولياءه الصّالحين, رضوان الله عليهم أجمعين, وختمت الصّلاة, وأخذت حقيبتي, وسرت علي بركة الله, وطلبت من أبي إرسال مبلغ مالي لي, يكفيني في رحلتي, واستقبلته, وأخذته, وسرت في الطّريق, وكان أول المدد وقف لي شخص أربعيني بسيّارة وسألني إلي أين؟ إلي الموقف! فأجبت: نعم, فأخبرني بوضع الحقيبة في صندوق السّيارة, وسيوصلني إلي الموقف، فسألني إلي أين أنا ذاهبة؟ فأخبرته إلي قرية الشّيخ الشّاذلي, فتعجب أني بمفردي, فأجبته في يقين ورضا, أنه معي ربي واثنان ملائكة, فضحك, وأخبرني أنه سيساعدني ويوصلني إلى الموقف.

وأجري اتصالًا برئيس المدينة, وسأله عن أتوبيس المجلس, فأخبره أنه في المدينة, ثم سأله عن عربة نقل المياه, فأخبره أنها في مرسي علم, من السّاعة التاسعة صباحًا, ولا يدري متي ستعود, فأخبرني أنه لا يوجد إلا طريقان, أحدهما: أن أتخذ سيارة خاصّة, وستكون باهظة الثمن, أو أتخذ السّيارة المتّجهة إلى مدينة أدفو, وأنزل بمنتصف الطّريق بالتحديد عند سيدي سالم, وأنتظر هناك عربة تأخذني إلي المدينة, ثم عاود الاتصال بسكرتير رئيس المدينة, وأخبره بقدومي, وأوصاه أن يقيمني في

مكان نظيف، وأعطاني رقم هاتفه، وأبلغني أنه يُدْعي: الأستاذ/ حسن عبد الحميد، وأنّ الذي سيكون باستقبالي في المدينة يُدْعي الأستاذ/ محمود التّهامي، أوصلني إلي مكتب الكارثة في مرسي علم، وأبلغ مدير المكتب أنّي أهمّه، وأنْ يحجز لي مكان بالسّيارة المتّجهة إلي اضفوا، فمكثت بالمكتب حتي جاءت سيارة، وركبت وانطلقت السّيارة حتي وصلت إلي منطقة سيدي سالم، وعندما نزلتُ، وتحركت السّيارة مغادرة المكان، نظرت حولي فوجدت جبالا ومنطقة صحراويّة، في تمام السّاعة الحاديّة عشر ظهرًا، وأنا بمفردي، وهناك مقام وسط هذه الجبال مكتوب عليه مقام سيدي سالم، وبجواره مقهي انتظار، دخلت هذا المقهى، وأخبرت العامل بها أني أريد الذهاب إلي قرية الشّيخ الشّاذلي، فأخبرني أن مدير مكتب الكارثة بمرسي علم أبلغه عن أمري، ويُدعَى: الأستاذ/ موسي فأخبرني بأنه لا يوجد سبيل إلي هناك غير عربة نقل المياه، أخبرته بأني سأنتظرها، فقال سأهاتف مصطفي سائق السّيارة، ولم أمكث كثيرًا، حتي خرج صاحب المقهى على الطّريق، وأخذ يلوح بيده يمينًا ويسارًا، معلنًا إشارة الوقوف وأخبرنا بأن مصطفي سائق عربة نقل المياه من مرسي علم إلي قرية الشّيخ الشّاذلي، ونزل مصطفي شاب في

الثلاثين من عمره، أو أقلّ، صاحب بشرة قمحيّة مائلة الي السّمار المقبول، وعينين بنّيتين بهما لمعة رضًا، أخبرته بأني أريد الوصول إلي قرية الشّيخ الشّاذلي فأخبرني أنّ معه اثنان من الرّجال بالسّيارة، سيخبرهم بصعودي معهم، وسرعان ما أخذ مني حقيبتي، ورفعها إليهم، وعدت أنا إلى عربة النّقل الثّقيل، فاعتذرت لهم عن التضييق عليهم، فأخبروني أنه لا يوجد وسيلة غير هذه للوصول إلي هذا المكان، ولا يوجد ضيقٌ ولا حرج، وأخبروني أنهم يعملون مدرّسين بالمدرسة هناك، قطعنا مسافة تبلغ تقريبًا 125 كيلومتر، داخل الجبال حتي وصلنا إلى قرية الشّيخ الشّاذلي.

فانتابني شعور من الطمأنينة وقتها، وأنّ الله معي بعد أن خاض القلق والرّعب معارك وحروبا شرسة داخلي، فهاتف مصطفى السائقُ الأستاذَ محمود التهامي، فأخبره أنه سيأتي بالسّيارة، لكي يأخذني إلي المكان الذي سأنزل فيه طوال مدّة تواجدي في المدينة، وصل الأستاذ محمود التهامي بسيارته، ونقلني إلي عمارة مجلس المدينة، بجوار استراحة رئيس المدينة، وأخبرني أنه لا يوجد في المكان شبكات هاتفيّة غير شبكة (موب ينيل) فطلبت منه شريحة؛ لعدم توافرها معي، وأريد أن يطمئن

علي أهلي، فأخبرني أنه سينظر في هذا الموضوع وطمئني أني لا أسكن هذا المكان بمفردي، وأنّ الشقق جميعها يسكنها طلّاب المدرسة القادمين؛ لأداء اختبارات المرحلة الإعداديّة، ومعهم أولياء أمورهم؛ فاطمئن قلبي، وضعت حقيبتي بداخل الغرفة وذهبت إلي الحمام، لم أجد ماءً للوضوء، فبدلت ملابسي، وطرقت الباب علي الشقة المقابلة، واستأذنت من ساكنتها، وأخبرتني أنّها إعلاميّة بقناة صوت العرب الفضائيّة واسمها: مدام هدي، فاستأذنتها في عدم توافر المياه لدي ،وأني سأستخدم الحمام لديها، في صباح اليوم التّالي قبل خروجي تركتها، وذهبت لاستكشاف المكان، وكان الوقت وقت عصر تقريبًا السّاعة الرّابعة عصرًا، وفي بداية خروجي من السّكن، رأيت المكان مريحًا للنّفس والنّظر، والفكر، حيث إنك إذا نظرت إلي شموخ الجبال الرّاسيات؛ أخذتك عظمة الله سبحانه تعالى، وردّدت قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ }[1]، وقوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ}**[2].

(1) سورة المرسلات:27

(2) سورة فاطر:27

لساني وقلبي وعقلي ردّدوا جميعًا في آن واحد " سبحان الله الخالق الأعظم " وجدت المكان قليل النّاس, تسير طريقًا طويلًا حتي تقابل كائنًا حيًّا, لا يشترط أن يكون إنسانًا, ربَّما شاة, وربما لا شيءَ, سرت في الطّريق قاصدة مسجد أبي الحسن الشّاذلي, فوجدت علي يمين الطّريق بعد السّكن ساحةً, تسمّي: ساحة الحجّة زكيّة, وكانت مغلقة؛ فلم أدخلها, يليها علي الجانب الآخر ساحةٌ, لم أكن أعرف أنها ساحة, فسرت في طريقي إلي المسجد, فوجدت في المقابل جبل حميثرا, أمامه سبيل مياه يسمّي: سبيل سيدي أبي الحسن, والمياه فيه طعمها مختلف عن أي طعم آخر, يميل إلي العذوبة, مع أنّ المياه بمرسي علم مالحة, ولكن طعم مياه السّبيل يميل إلى طعم مياه الآبار, وجهّت وجهي على المسجد, وسمّيت الله تعالى, وصعدت علي درجات سُلَّمه, وجدت ساحته, يا لها من روعة, تراث معماري مخالف, لم تره عيني من قبل, وفي مقابل البوابة حجرة المقام, وجدت شيئًا يجذبني نحوه, ولكن لم ألقِ بالًا, في البداية كان هدفي الدخول إلى مكان الوضوء, لأدرك صلاة العصر, وأديّت فريضة العصر, ثمّ شغل بالي شوق لهذا المقام, فسمّيت الله تعالى, وألقيتُ السّلامَ, ودخلت قرأت الفاتحة, ووجدت شيئًا في نفسي يقول لي: اجلسي

هنا, وتحدّثي فجلست في وجه المقام, وبدأت في رفع يدي مستقبلة القبلة, وأتحدّث مع الله تعالى بصوت خافت, لم أعلم من أين أتي هذا الكلام الذي ينطلق به لساني؟ ووجدت نفسي أقص عليه خبر شوق لزيارته, ثم رُفِع آذان المغرب؛ فقمت لصلاة الفريضة, ثم عدت إلى المقام مرّة أخري, فوجدت هناك رجلًا, أعجبتني لهجته وصوته, وهو يقف مادحًا أمام المقام, كان يقول: يا رجال اللهِ هيّا*** يا جنود الله هّيا " فانطلق لساني أيضًا في المديح؛ فوجدته ينظر إلي في تبسّم, ثم أعطاني قطعة بسكوتٍ محشوٍ بالتمر فأخذته, وأكملت حتي رُفِع آذان العشاء, فقمنا فصلّينا الفريضة, ثمّ خرجت للعودة إلي السّكن, ولم أكن أذوق الزاد منذ أمس, منذ السّاعة الثانية عشرة من منتصف الليل, فعزمت علي العودة للسكن؛ لكي أتناول بعض الطّعام, وبعد خروجي من المسجد وجدت مدام هدي في وجهي تقول لي: إلى أين؟ فقلت إلي السّكن, قالت لي: تعالي معي نذهب إلي السّاحة ثم نعود, هل عندك مانع؟ فقلت: لا, هيا لنذهب فعدنا إلى المقام مرة أخري؛ لنرى رجلًا يبدو عليه مظهر الشيوخ, فذهبت إليه فسألته, هل فضيلتك إمام هذا المسجد؟ فوجدته يقول: لا, فأخبرته أني سمعت صوته وهو يتلو بعض آيات

القرآن الكريم، بعد صلاة المغرب عند المقام، وأنّ صوته عذب وجميل، فدعانا إلى الذهاب إلى السّاحة المقابلة للمسجد، وكنت قد ذكرتها آنفًا، وكنت لا أعرف اسمها، فأبلغنا أنّ اسمها: ساحة سيدي علي الشّريف، فذهبنا إليها؛ فإذا بي أجد مقامًا داخلها تنبعث منه ريح تجذبنا إليه، فأقبلت إليه، ووضعت رأسي علي شباكه، أشمُّ الرّائحة المنبعثة منه ،فإذا بالرّجل الذي كان في المقام، وأسميته بعد ذلك: الدّرويش، يقول لي: بصوت جليّ، لن يأتي فتعجبت، وقلت له من؟ فأجاب: الذي تريديه فإذا بي ولأول مرة، ينطلق لساني في الرّد دون خشية، وأقول: ليس بيدي، ولا بيدك، ولا بيد أحد، إنه بأمر الله تعالى، فتبسّم بسمة فرح، وقال إذن سيأتي، فإذا به يدعوننا إلي الطّعام، فتذكرت حينها ما قالاه لي الأختان- هبة وهدير- فأخبرته أني لا أريد الذّهاب إلي الطّعام، فأخبرني الدّرويش أنّ في السّاحات هذه الأطعمة تأتي من عند الله، لا يطلبها أحد بشروط أو مواصفات خاصّة، إنّما يأتي طارق إلي السّاحة، مرسل إليك كذا، ربّما لحم وربّما أي شيء آخر، اذهبي وكُلِي ما رزقكِ الله تعالى به، فذهبت فإذا بطاولة رخاميّة طويلة، ومقاعد مثلها، مفروش عليها سجّاد مصنوع يدويًا، جلست ووضعوا أمامي لحم شاة، وقثاء مطبوخة، وأرزًا وخبزًا،

فتبسمت وقلت في نفسي: أتيت هذه المسافة كلها, لأكل لحم ضأن الذي كانت نفسي تشتاق إليه في بلدي, فأكلت حتي شبعتُ, ثمّ جاءوا بطبق فاكهةٍ ومشروباتٍ, وجلست في مقابل الدّرويش فإذا به يذكر اسم السّيدة زينب, وكعادة المصريين عند ذكر آل بيت النّبي ، نقول: مدد, فإذا به يقول لي: انتِ بعيدة عنها, لأنه في الأصل القرب والحبّ درجات, يعني: السّيدة خديجة أقربهم إلي قلب رسول الله, ويليها فاطمة - عليهم السلام وأرضاهم -, استأذنته وقمت حيث المكان الذي يصلون فيه في السّاحة, وذكرت في نفسي لو جلست أكثر؛ لأخذني إلي عالم آخر, وجلست في زاوية السّاحة فإذا برجل يدخل علينا, ويسأل عن الدّكتورة علا فاندهشت, وأجبته هل تعرفني؟ فأجاب: إنه يعلم بقدومي منذ أسبوع فتعجبت, وسألته كيف؟ فأخبرني أني لا أسأل عن أي شيء أشعر به, أو أراه, أو يخبرني به أحد هنا, وجلس, وأخبرني أنّ اسمه: الكابتن محمد, وفات القليل من الزّمن وأرسل لي – الدّرويش – ورقة مع بنت مدام هدي, واسمها: دينا, مكتوب في أحد أوجه الورقة السّتار- إنّ مع العسر يسرا – رقية, وعلى الوجه الآخر اللهمّ صلّ علي سيدنا محمد, نور من الله – رقية, فأخذت الورقة, واطلعت عليها,

ونظرت إلي مكانه؛ لأسأله عما أراه في السّاحة, فطبقت الورقة ووضعتها في حقيبتي وأكملنا كلامنا عن المكان, والقادمين إليه من شتّي بقاع الأرض, وعن مواسم الزّيارات والسّاحات , وما يحدث في هذه الأوقات من كل عام.

وجاءت السّاعة الواحدة بعد منتصف الليل فاستأذنت الكابتن محمد أن أتجول في أرجاء المدينة ليلًا؛ لأستمتع باختلاف الأجواء, والهدوء الذي يعمّ المكان, فسرنا في المكان, حتي وصلنا السّكن, وأتاني بمياه للشّرب, وكنت علي وضوئي, وصليت وحاولت أن أنام فلم يأتني النّوم, فقرأت بعض آيات من الذّكر الحكيم, وغفوت السّاعة الرّابعة فجرًا, فأتاني الدّرويش في المنام, وقال لي الآتي: اسم الستار يصاحبك, ولا تقلقي إن مع العسر يسرا, بك صفات السّيدة رقيّة وقربها من الرّسول ؑ, السّيدة تناديك؛ لزيارتها ومدحها, صلّي علي النّبي في كلّ أوقاتك.

فاستيقظت مندهشة, ثم توضأت من مياه الشّرب, وأديّت فريضة الصّبح, وجلست أقرأ أورادي, وورد القرآن الكريم, وعندما جاءت السّاعة السّابعة صباحًا, وكنا في يوم الأحد 22 يناير 29 جمادي الآخرة, طرقتُ البابَ علي مدام هدي, واستأذنتها في استخدام الحمام, وخرجت ارتديت ملابسي,

ونزلت للصّعود إلي جبل حميثرا, سرت في الطّريق ووجدت مِصعدًا ممهدًا لقمة الجبل فصعدته, ولم أشعر بتعب مبالغ فيه أبدًا, وعندما وصلت إلي قمة الجبل؛ وجدت سارية ويافطة مكتوب عليها: في حميثرا سوف ترى.

فجلست في مكان ليس به شمس كثيرة, وبدأت في قراءة أورادي, وأدعو بما يجول في قلبي وخاطري, حتي كاد النّوم أن يغلبني علي الجبل, وكأنني لا أذوق طعم النّوم منذ أشهر, وكانت السّاعة التّاسعة صباحًا, فنزلت من علي الجبل, وذهبت إلي السّكن فغفوت حتي تمام الثّانية عشر ظهرًا, ورأيت في غفوتي أنّ رجلًا يطرق الباب, وأنا لم أقدر علي الرّؤية الواضحة لما في عيني من نوم, ولكن رأيت بعض ملامحه, واستيقظت وارتيدت ملابسي, ونزلت قاصدة المسجد فقابلتني أم أحمد التي تسكن الدور الأرضي, فرحبت بي ودعتني لتناول كوب من الشّاي, فرفضّت, وأخبرتها أنّي أريد أن ألتحق بصلاة الظّهر, وسألتها عن المياه من أين يأتون بها؟ فأجابتني إنهم قاموا بملء خزّانات المياه منذ قدومهم, فأجبتها يبدو أنّ لدي مشكلة بالسّباكة سأخبر الأستاذ محمود التّهامي, فإذا بها تقول: الأستاذ محمود هنا يعرف صنعة السّباكة, وكان جارنا السّاكن في الشّقة المقابلة

لأم أحمد، وعندما جاء إلينا؛ تذكرت ملامح الرّجل الذي طرق عليَّ الباب، ورأيته في غفوتي، فتركت له المفتاح، وذهبت لصلاة الظّهر، وعندما فرغت من الصّلاة والأوراد، ذهبت إلي إمام المسجد، وكان يُدْعَي الشّيخ عبد الله، يبدو عليه مظاهر الهيبة والخشوع، والأدب والأخلاق. وبالمناسبة كل الرّجال الذين تعاملت معهم منذ قدومي، يلتزمون بمحاسن الأخلاق والجمال، لم يرفعوا أعينهم في عيني، عنما تحدثت معهم أو عندما كنت أسير في المكان المحيط بهم، وهذا يفتقده الكثير من الرّجال في مجتمعنا المدني، عافانا الله وإياكم من نظرات كالسّهام.

قدمت علي الشّيخ عبد الله، وألقيت عليه تحيّة الإسلام فردّها، وقال : انا انتظرك منذ وقت طويل، أهلا بك، شَرُف بك المكان، وازداد نورا، وانبعثت فيه الرّيح الطّيبة، وذهب إلي حجرة بجوار المحراب وأسفل المنبر، وجاءني بكتاب المدرسة الشّاذليّة للدكتور عبدالحليم محمود، وقال: هذه هديّة سيدنا أبي الحسن الشّاذلي للدكتورة علا، رفع الله قدرك، ووفقك وأمدك بالمدد، فأخذت الكتاب، وشكرت الشّيخ عبد الله – وذهبت حيث المقام، وجلست وافتتحت جلستي بالصّلاة التعظيمية، وهي: اللهمّ إني أسألك بنور وجه الله العظيم، الذي ملأ أركان

عرش الله العظيم, فقامت به عوالم الله العظيم, أن تصليَ علي مولانا محمد, ذي القدر العظيم, وعلي آل نبي الله العظيم, بقدر عظمة ذات الله العظيم, في كل لمحة ونفس, عدد ما في علم الله العظيم, صلاةً دائمةً بدوام الله العظيم, تعظيمًا لحقك يا مولانا يا محمد يا ذا الخُلق العظيم, وسلّمْ عليه وعلي آلة مثل ذلك, واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الرّوح والنّفس ظاهرًا وباطنًا, يقظةً ومنامًا, واجعله يا رب روحًا لذاتي من جميع الوجوه, في الدّنيا قبل الآخرة يا عظيم.

ثم قلت: (اللهمّ أمدّنا بالمدد الذي أمددت به أنبياءك ورسلك, وآل بيت النّبي الكريم, وأولياءك وعبادك الصّالحين, وأنِرْ لنا الطّريق كما أنرت الطّريق لصاحب هذا المقام, وارزقنا السّير علي طريقه).

فتحت الكتاب, وبدأت في القراءة, وجدت الدّكتور عبد الحليم محمود يحكي قصته مع صاحب هذا المقام وقال : لقد اضطررت إلي كتابته اضطرارًا, وحملت علي تأليفه حملًا, وأضاف قائلًا : إنني أروي هنا ما وقع لي شخصيًا, أرويه كما حدث دون زيادة أو نقص , وما من شك في أن مثله بل أغرب منه يحدث كل يوم.

يقول الدّكتور عبد الحليم محمود – منذ أكثر من خمس عشرة سنة كنت في زيارة أحد الأصدقاء, وأخذ الحديث مجراه في نواحٍ عدة, ثم تطرّق إلى أبي الحسن الشّاذلي, وكنت في ذلك الوقت أجهل الكثير عن هذا القطب الكبير, كنت اسمع اسمه في كل مكان, ولكن الظروف لم تكن قد أتيحت لي بعد أن أتصل به اتصالًا يزيد عن سماع الاسم إلا قليلًا. وسأل صديقه إن كان لديه مراجع تعطيه صوره موجزة صادقة عن الشّيخ, تزيل بعض الجهل به, فأعطاه كتاب الدّكتور السنوبي عن أبي العباس المرسى ¬, وأخذ يقرأ الدّكتور عبدالحليم محمود ما كتبه الأستاذ السنوبي؛ فوجد في نفسه رغبة ملحّة في المعرفة الزّائدة عن أبي الحسن الشّاذلي, وكتب عنه أن ييسر الله له ذلك.

أخذ – الدّكتور عبد الحليم محمود - في السؤال عن المراجع هنا وهناك, ووجد في دار العشيرة المحمديّة كتاب " المفاخر العليّة " لابن عياد مخطوطًا بقلم الشّيخ العروسي نفسه, بخط جميل علي ورق فاخر, ولم تبخل العشيرة المحمديّة عليه به, ووجد في الدّار أيضًا من الكتب النّادرة كتاب " درّة الأسرار " وهو من أنفس المراجع عن أبي الحسن الشّاذلي,

استقي فيه مؤلفه أخبار أبي الحسن الشّاذلي ممن التقوا به مباشرة, وعن أصحاب أصحابه.

ولقد سافر الشّيخ العروسي ¬ من أجل ذلك إلى عدّة أقطار, وبين في مقدمة كتابه كيفيّة جمعه, إذ يقول : " كان من جملة منن الله سبحانه علىّ, وعلي من سلف لي, هو تتبع ما لسيدنا الشّيخ الولي, الصّديق العارف, المحقق الغوث, القطب الشّريف, الحسيني أبي الحسن عَلِيّ المعروف بالشّاذلي, من الآثار وتقييد ما له من الدعوات والأذكار, وكنت أطلبها وأجهد في جمعها, وأصرف الرّغبة في التوجّه إلى من عرف بها.

فمنها: ما أخذته تلقيًا بتونس, من سيدي الشّيخ صالح أبي العزائم ماضي بن سلطان, تلميذ الشّيخ أبي الحسن, وخادمه.

ومنها: ما أخذته بأرض المشرق, من سيدي الشّيخ أبي عبد الله محمد المدعو: شرف الدّين, ولد سيدنا الشّيخ الصّالح ياقوت الحبشي.

ومنها: ما أخذته عن غيرهم, من معتقدي طريق الشّيخ, وأصحاب أصحابه, من أهل المشرق والمغرب, حتي اجتمع عندي من ذلك ما يبهج سماعه, ويعز اجتماعه ".

ولم تبخل العشيرة المحمديّة أيضًا علي الدّكتور عبد الحليم

محمود, بهذا الكتاب النّادر.

وأخذ الدّكتور عبد الحليم محمود مع الزّمن يستكمل المراجع, فكان من أهمّها كتاب: لطائف المنن في مناقب الشّيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن, تأليف: ابن عطاء الله السّكندري ¬, وهو تلميذ أبي العباس المرسى أكبر تلاميذ أبي الحسن, والخليفة بعده, وقد حصل علي الطبعة المصريّة حينئذ.

واستغرق في القراءة والدّراسة فترة من الزّمن, وكتب في مجلة الأزهر مقالًا بعنوان (أبو الحسن الشّاذلي, ومعركة المنصورة), ثم صرفته الصواف, وطويت صفحة أبي الحسن حتي سنة 1962م , حين دُعي الدّكتور عبد الحليم محمود إلي تونس أستاذًا زائرًا لمدّة شهر, بجامعة الزّيتونة فتجددت الذّكريات عن أبي الحسن, وأخذ يتنسم عبير في تونس, وصعد إلى الجبل الذي كان يتعبد فيه, ودخل المغارة التي كان يعتكف بها, وهي مغارة تتسع في البداية لمجموعة من النّاس, ثم ينزل فيها الإنسان فيصل إلى مكان يتسع لأفراد قليلين, وينزل فيها من جديد حتي يصل إلى المكان الأخير, الذي لا يتسع إلا لشخص واحد, ونزل إلي نهايتها, وجلس خاشعًا متعبدًا, حيث كان يتعبد

أبو الحسن، وحيث كان يقضي السّاعات الطويلة ليلًا ونهارًا، وحيث كان يخلوا فريدًا بربّه تعالى، متضرعًا يغلبه الشّوق، وتغمره المحبّة ويغمر قلبه اليقين.

ويقول – الدّكتور عبد الحليم محمود - : وشعرت في المغارة بطمأنينة النّفس وبالسّكنية تملؤي، وتجمع خواطري بصورة عجيبة، والتّركيز الذّهني الذي يندر، ويعز وجوده.

وفي كل مرّة كان يزور المغارة، تتردّد ذكريات الكتاب علي ذهنه والصّحف التي طويت، وتتجدد مع ذلك الرغبة في الكتابة عن أبي الحسن، فالمراجع عن أبي الحسن قد زادت، وها هو ذا يجد طبعة تونسيّة لكتاب لطائف المنن، وها هو ذا شيخ الجامع الذي في أعلي الجبل عند المغارة، يزودني بأحزاب أبي الحسن الشّاذلي التي طبعت في تونس، وأصبح الدّكتور عبد الحليم محمود يحضر الحضرات الشّاذليّة في المكان نفسه، الذي كان يقيمها فيه أبو الحسن ¬.

كل ذلك جعل العدّة للكتابة عن أبي الحسن تزداد عتادًا وتزداد قوّة ولكنّ الصّحف ما زالت مطويّة لدي الدّكتور عبد الحليم محمود، ثم ملابسات عديدة وظروف متناسقة جعلت الدّكتور عبد الحليم محمود يأخذ الطّريق الشّاذلي، واندمج في

جو المريدين, وواظب علي الأوراد والأذكار الشّاذليّة, ومكث في هذا إلي شهر مارس سنة 1964م.

كان في لبيا أستاذًا زائرًا للجامعة الإسلاميّة هناك, وكان قد انتهي من إلقاء المحاضرة في الدّار البيضاء, واتخذ إجراءات السّفر حاجًّا إلى بيت الله الحرام.

وبينما الدّكتور عبد الحليم محمود في طرابلس, ينتظر أن يبحر منها إلى الأراضي المقدّسة, إذ به يرى في يما يراه النّائم شخصًا يعرفه اسمه: توفيق يراه في ملابس غير ملابسه العادية, يراه يلبس ملابس شرطي, ويمسك بيده قيدًا, ويقول له آمرًا: أكتب عن أبي الحسن الشّاذلي. وتلكأ في الاستجابة, وأراد أن يهمل الموضوع, ويتحدث معه في شيء آخر, فإذا به يهدّد بوضع القيد في يديه, وإذا به ينذر ويتوعد, فقال له: هل معني هذا أن أترك ما بيدي من أعمال لأكتب عن أبي الحسن الشّاذلي؟ قال: نعم, اترك ما بيدك من أعمال واكتب عن أبي الحسن, ووعده بالكتابة, واستيقظ ويسّر الله أمر الحجّ, والحمد لله.

وعاد الدّكتور عبد الحليم محمود إلي القاهرة محاولًا مع وضوح الرّؤيا في ذهنه, ومع تذكره لها أن يرجئ أمر الكتاب عن

أبي الحسن, لماذا؟ ليس يدري, و بدأ في دراسة التّفسير الصّوفي عن سهل بن عبد الله التّستري, فقد كان موطّنًا نفسه علي أن يعطي طلبة كليّة أصول الدّين محاضراتٍ عن التّفسير الصّوفي, ورأى أن من الخير أن يكون بين يد الطلبة كتاب عن الصّوفي, الذي لم ينل حظه من الدّراسة.

وبينما هو سائر في البدايات الأولي من الدّراسة والكتابة, إذا بعاصفة من هذه العواصف التي تمر بالإنسانيّة من آن لآخر, تبعده عن التّستري وعن التّفسير الصّوفي, تبعده عنه في المكان, وعنه في الجوّ الرّوحي, وطويت صحف التّستري, بل زالت من عقله الطّاقة الدّافعة التي كانت تحفزه علي الكتابة عنه, وتذكّر حينئذ الرّؤيا وتذكر (توفيق) وهو يقول: اترك كل شيء, واكتب عن أبي الحسن, ومضت أسابيع لم يشتغل فيها إلا بالقراءة اليسيرة, ثمّ لا يدري حينئذ كيف جاءته الفكرة أنه كتب فيما مضي في فترات متباعدة عن موضوع " الإيمان ", وأنّ هذا الموضوع يسهل عليه تناوله بالبحث والدّراسة.

وذات يوم أخذ بعض المراجع عن موضوع الإيمان في رحلة إلى الرّيف, على أمل أن يجد في هدوء الرّيف وصفائه, ما يساعده علي التّركيز الذهني, والسّرعة في إنجاز الموضوع, وكان

مع بعض الأصدقاء ونزلوا من سيارة أجرة أمام القرية, وعادت السّيارة من حيث أتت, وبداخلها المراجع, ولم يتذكروا إلا بعد أن أصبحت السّيارة, بحيث لا أثر لها من رقم, أو عنوان, أو غير ذلك من آثار وكما تذكر الرّؤيا عن عاصفة التّستري تذكرها عندما أصبحت السّيارة لا عينًا, ولا أثرًا " اترك ما بيدك, واكتب عن الشّاذلي " وقال – الدّكتور عبد الحليم محمود – في نفسه لنكتف بهذه الدّروس, ولنبدأ والله المستعان وبه التّوفيق, وعاد إلى الشّاذلي, ووجد المراجع مستكملة, المراجع الأصليّة, والمراجع الثانويّة, وكتب الطّبقات وجد المراجع القديمة والحديثة, وجد كل ما يحتاجه عن الشّيخ الشّاذلي في متناول يده, ووجد العمل ميسرًا سهلًا, والصّدر منشرحًا, والحمد لله, وهذه كانت قصة الشّيخ – عبد الحليم محمود – مع أبي الحسن الشّاذلي, كما حدثت دون زيادة, أو نقص.

لقد كان لأبي الحسن أثر هائل في هداية النّاس, علي مرّ الزّمان, ولقد كان له أثر ينتقل أريجه الزّكي, من شخص إلى شخص, ومن عصر إلى عصر, حتي وقتنا الحاضر

ولقد بدأ هذا الأثر بالثّمرة اليافعة في العارف بالله, القطب الكبير أبي العباس المرسى, وفيمن حول الشّيخ من أصدقاء

ومريدين, وأسلم أبو العباس المشعل – مشعل الهداية – إلى شيخ العلماء, وشيخ الصوفيّة في عصره – ابن عطاء الله السّكندري – صاحب الحكم التي قال عنها أحد كبار العلماء : كادت الحكم أن تكون قرآنًا.

لقد حمل – ابن عطاء الله السّكندري – المشعل؛ فأنار به مَن حوله, واستنار به مَن بعده, وبقى النّور إلى الآن في كتبه, يضئ الطّريق للسّالكين, وبقى متنقلًا من جيل إلى جيل, يشير بنسائه إلى – أبي الحسن- كمنبع من منابع الهدى, وكعلم من الأعلام, الذين اتّبعوا هدى الله في كتابه العزيز, واقتفوا أثر رسول الله ‘, قولًا, وعملًا, واتّخذوا أسوة في سلوكهم, في اليسير من الأمور, والعظيم منها.

يقول الشّيخ أبو العباس المرسى: كنت مع الشّيخ أبي الحسن بالقيروان وكان شهر رمضان, وكانت ليلة جمعة, وكانت ليلة سبع وعشرين, فذهب الشّيخ إلى الجامع, وذهبت معه, فلما دخل الجامع وأحرم رأيت الأولياء يتساقطون عليه, كما يتساقط الذباب علي العسل, فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع, قال الشّيخ : ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة, وكانت ليلة القدر, ورأيت رسول الله ‘ وهو يقول : يا علي طهر ثيابك من الدنس؛

تحظ بمدد الله في كل نفس. قلت : يا رسول الله, وما ثيابي؟

قال : اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع : خلعة المحبّة, وخلعة المعرفة, وخلعة التّوحيد, وخلعة الإيمان, وخلعة الإسلام.

فمن أحب الله هان عليه كل شيء. ومن عرف الله صغر لديه كل شيء. ومن وحّد الله لم يشرك به شيئا. ومن آمن بالله أمن من كل شيء. ومن أسلم لله قل ما يعصيه, وإن عصاه اعتذر إليه, وإن اعتذر إليه قبل عذره. ففهمت حينئذ معني قوله ‚ : **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ }**[1] .

ويقول ابن عطاء الله عن أبي الحسن الشّاذلي : "لم يختلف في قتبانيته ذو قلب مستنير, ولا عارف بصير "

جاء في الطّريق بالعجب العجاب, وشرع في العلم الحقيقة الأطناب, ووسّع للسالكين الرّحاب, حتي لقد سمعت الشّيخ الإمام مفتي الإسلام تقي الدّين, محمد بن علي, القشيري, ¬ يقول : "ما رأيت أعرف بالله من الشّيخ أبي الحسن الشّاذلي" وإذا كان هذا رأي مفتي الإسلام تقي الدّين, القشيري فإن الشّيخ مكين الدّين الأسمر يقول : مكثت أربعين سنة, يشكل عليَّ الأمر في طريق القوم, فلا أجد من يتكلم عليه, ويزيل عنّي إشكاله, حتي

(1) سورة المدثر:4

ورد الشّيخ أبو الحسن؛ فأزال كل شيء أُشكل عليَّ.

ولما قدم بعض الدّالين علي الله تعالى إلى الإسكندريّة, والتقى به الشّيخ مكين الدّين الأسمر قال : "هذا الرّجل يدعو النّاس إلى باب الله, وكان الشّيخ أبو الحسن يدخلهم علي الله ".

يقول ابن عطاء الله في لطائف المنن: "أخبرنا الشّيخ العارف مكين الدّين الأسمر فقال: حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشّيخ الإمام مفتي الأنام: عز الدّين بن عبد السّلام, والشّيخ أبو الحسن الشّاذلي, وغيرهم, ورسالة القشيري تقرأ عليهم وهم يتكلمون, والشّيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغوا كلامهم, فقالوا : يا سيدي, نريد أن نسمع منك فقال: "أنتم سادات الوقت, وكبراؤه, وقد تكلمتم فقالوا : لا بد أن نسمع منك.

قال: فسكت الشّيخ ساعة, ثم تكلم بالأسرار العجيبة, والعلوم الجليلة فقام الشّيخ عز الدّين, وخرج من صدر الخيمة, وفارق موضعه, وقال: اسمعوا هذا الكلام الغريب, القريب العهد من الله"

إن كلام أبي الحسن قريب العهد من الله, علي حد تعبير العز بن عبد السّلام, أي: أن كلامه إلهام من الله, إنه ليس علمًا مكتسبًا من الكتب, إنه ليس تقليدًا ولا توليدًا إنه ليس نتيجة

دراسة وبحث, وإن كان الشّيخ قد طال الدّرس والبحث, وليس بثمرة كتب ومنطق, وإن كان الشّيخ قد طال النّظر في الكتب, وأنعم الرويّة فيها, وإنّما هو إلهام وبصيرة, ونور من الله سبحانه.

ولعلنا بعد هذا نريد أن نعرف شيئًا عن هذا الذي يقول عنه العز بن عبدالسّلام: إن كلامه قريب العهد من الله.

إنه علي عبد الله بن عبد الجبار, وينتهي نسبه إلي سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب. ولد ببلاد المغرب سنة 395ç, بقرية تسمي " غمارة ". وأخذ يدرس بها العلوم الدّينيّة, هناك أتيحت له الوسائل وطلب الغايات, وبرع فيها براعة كبيرة.

يقول ابن عطاء الله السّكندري عنه: إنه لم يدخل طريق القوم حتى كان يعدّ للمناظرة في العلوم الظّاهرة.

بيد أن هذه العلوم الظاهرة مهما بلغت بها الدّقة, ومهما بلغ بها العمق, لا تفضي بالنّفوس الطّموحة إلى الكفّ عن التّطلّع, نحو عالم الغيب, واستشراف آلائه, وأنواره.

كيف يصل الإنسان إلى عالم الغيب؟ وكيف ينغمس الإنسان في أضوائه؟

كيف ينعم بجماله, ويشعر بالروعة في محيط جلاله؟

إن النّفوس الطّموحة كلّما ازدادت علمًا؛ ازدادت شعورًا

بالنّقص، والكمال لله وحده، ولقد أمر الله تعالى الرّسول الله ' أن يقول: (**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}**[1].

وشعر أبو الحسن بالرّغبة الملحّة في القرب من الله تعالى، وفي أن يستضئ قلبه بنور المعرفة، وفي أن يكشف الله تعالى له الحجّب.

كيف يروي هذه الرغبة؟ كيف يسير في الطّريق؟ من أين يبدأ؟

إن البدء الميسّر السّهل، البدء الذي يأمن الإنسان عواقبه، إنّما يكون طريقه خبير سير الطّرق، ومحض السّبل، وكشف عن المزالق والأخطار، واستنار قلبه بالطّريق القاصد إلى الله تعالى.

أين يجد هذا الشّيخ؟ ما السّبيل إليه؟

وحملت الرّغبة الملحّة أبا الحسن علي السّفر، إنّها هجرة إلى الله تعالى، إنها هجرة النّفس الطلقة الشفّافة، وهي هجرة يسير بها الأمل، ويتخللها الإشفاق، وتصاحبها في كل الأوقات أسئلة لا جواب لها :

---

(1) سورة طه:114

هل سيجد الشّيخ؟ وكيف يكون؟ وهل سيستقبّله الشّيخ بقول حسن؟ وبم سينصحه؟ وإذا لم يجده في بغداد فأين يجده؟

وانتهي به المطاف إلى بغداد، والتقى بالأولياء، وكانت قمّتهم في نظره، هو أبو الفتح الواسطي، يقول أبو الحسن : لما دخلت العراق، اجتمعت بالشّيخ الصّالح أبي الفتح الواسطي، فما رأيت بالعراق مثله. ولكنْ همّة أبي الحسن كانت تسمو إلى البحث عن القطب ذاته، إنه كان يريد أن يكون قائده، هو القطب نفسه، أين يجد القطب؟

وها هو ذا بالعراق وها هم أولاء الصّالحون، وأولياء الله يتردّد عليهم كل يوم ,وها هو ذا يري النّور علي وجوههم، والصّلاح يرتسم علي سيماهم، ولكنه لم يجد القطب وهو مطلبه.

وذات يوم.. قال له أحد الأولياء: إنك تبحث عن القطب بالعراق، مع أن القطب ببلادك، ارجع إلى بلادك تجده.

عاد أبو الحسن من حيث أتي، عاد يحدوه الأمل، ويغمره الرّجاء، لقد صدق الولي الذي أنبأه بأن القطب في بلاده، وبأنه سيجده عند عودته. وعاد يسرع الخطأ ويستحث الوصول.

وها هو ذا بمغارة من جديد، يسأل عن القطب المقبل،

والمدبر, والرّاحل, والمقيم.

وذات يوم يقول أبو الحسن: لما قدمت عليه, وهو ساكن بمغارة في رأس جبل, اغتسلت في عينٍ بأسفل ذلك الجبل, وخرجت عن علمي وعملي, وطلعت إليه فقيرًا, وإذا به هابط إليّ, وعليه مرقّعة, وعلي رأسه قلنسوة من خوص, فقال لي: مرحبًا بعلي بن عبد الله بن عبدالجبار, وذكر نسبي إلى رسول الله ﷺ, ثم قال لي : يا علي, طلعت إلينا فقيرًا من علمك وعملك, فأخذت منّا غنى الدّنيا والآخرة, فأخذني منه الدّهش, فأقمت عنده أيامًا إلى أن فتح الله على بصيرتي.

من هو ذلك العارف بالله؟ من هو هذا القطب؟

إن لنا قبستا خاطفة من أنواره, وغمسه خفيفة من لآلئه : إنه الولي الكبير سيدنا - عبدالسّلام بن مشيش – يقول عنه صاحب الدّرر البهيّة : " هو القطب الأكبر, والعلم الأشهر, والطود الأظهر, العالي السنام, وهو البدر الطالع, الواضح البرهان, الغني عن التّعريف والبيان, المشتهر في الدّنيا قدره, والذي لا يختلف في غوثيّته اثنان, وطريقه ترياق شافٍ لأدواء العباد, وذكره رحمة نازلة في ناد.

سري سرّه في الآفاق, وسارت بمناقبه الركبان والرّفاق,

قضى عمره في العبادة، وقصده للانتفاع به أهلُ السّعادة، وكان في العلم في الغاية، وفي الزّهد في النّهاية، جمع الله له الشرفين: الطيني والدّيني، وأحرز الفضل المحقق اليقيني.

وتوقّفت هنا، وألهمني الله الخروج من المقام، والصّعود إلي الجبل، وكنا في تمام السّاعة الخامسة مساءً، وما زلت لم أذق طعم الزاد، فلم أشعر بالجوع مثل ما كنت من قبل خرجت من المقام. وتوجّهت نحو الجبل، وكأنّ شيئا ينتظرني بالأعلى، صعدّت ووصلت للقمّة، ورأيت الشّمس تغرب في منظر رائع وجميل، منظر مريح للعين، والنّفس، استقبلت القبلة، ومكثت القليل من الوقت، أدعو الله وأنا أنظر إلي السّماء، وكأني أنتظر شيئا يهبط عليّ من السّماءِ، وفجأةً نظرتُ إلي بعيدٍ، فوجدت وكأنه جانبٌ من الكعبة الشّريفة، لم تتحدد الملامح بوضوح، ولكني تبسّمت، ووجدّت أيضًا فوقها نورً أخضر خافتًا، فشعرت براحة، وخطر ببالي حجّ القلوب، وتذكرتُ (فيديو) كنت تكلمت فيه عن حجّ القلوب، وذكرتُ كما أنّ للأبدان حجًّا وعمرةً، فإن للقلوب أيضًا حجًّا وعمرة.

فجأة صعد الكابتن محمد، ومعه مجموعة من الأطفال، والنّساء، عدت أنظر إلي المكان مرّة أخرى، لم أجد شيئا، وصار

المكان سماءً طبيعيّة ليس بها إلا سُحُب, فطلب مني الكابتن محمد أن أنشد, فتجل الله عليَّ فوقَ الجبل, ومدحت حتي اقشعرَ جسد امرأةٍ, وبكت؛ فأمسكت عن الكلام, فقالت: زيدي فقد سقيتينا حبًا وشغفًا, زيدي فقد جعلتِ للرّحلة طعمًا مختلفًا, حتي رُفِع آذان المغرب, فنزلنا نصلي, ثمّ خرجنا, وذهبنا إلى ساحة – عقيل مظهر – والتي كنا نجتمع فيها, ونقيم مجلس البُردة , فطلبوا منّي أن أفتتح المجلس, وفي الحقيقة كان صوتي لم يساعدني, ولكن من الغريب أني بفضل الله, أبليت بلاء حسنًا, علي عكس عادتي, فرأيت مظهر البهجة والسّعادة علي وجوه الحضور, كما حضر شيخ الجامع- الشّيخ عبد الله- , ولجنة الامتحانات, التي كانت مقيمة في مدرسة الشّيخ الشّاذلي, والطلبة, وأولياء أمورهم, والقليل من أهل البلدة المباركة, وخرجنا نجلس بالخارج علي مقاعد من الأخشاب, مُعَدّة لغريبٍ أو عابرٍ سبيل يأكل عليها, فجلسنا نستكمل حديثًا كنا بدأناه, حتي آتاني خادم السّاحة, واسمه: أحمد بكتاب عن السّاحة, واسمه: هنا مدرسة الحبّ, وهو: عبارة عن مجموعة من المقالات للشيخ: محمد أكرم عقيل مظهر, وأخذنا الوقت, وتعرّفت علي مَن كان معي علي الجبل, ومنهم: ملك محمود,

وملك يوسف, ووالدها الأستاذ: يوسف, ووالدتهما, وجلسنا معهم باقي الليلة وكانت معنا مدام هدى, وأولادها.

وذهبنا إلى السّكن في تمام السّاعة الواحدة بعد منتصف الليل، لم أنم هذه الليلة, جلست في الشُرفة, أفكّر فيما قرأت, وما حدث لي في هذا اليوم, إنها حقًا أحداث غريبة تحدث, كما قال الدّكتور عبد الحليم محمود, في طليعة كتابه المدرسة الشّاذليّة.

قرأتُ أورادي, وغفوتُ في الشرفة في تمام السّاعة الرّابعة, وإذ بي أري شيخًا جليلًا الشّي الشّيخ أحمد سعيد عمران الدّح, وكنت قد تحدثت معه قبل شهر, أو أكثر عن مشكلة تمسّني, ورأيته وقتها أيضًا في منام, كأني أسير في طريق ومع ودخلنا محل عطارة, ووجدته يقبل يده, وهو جالس علي كرسي, والتفتُّ أنا إذ بي أري أرفقا عليها بخور, وفي الخلف أري أرفقا عليها برطمانا من العسل النّحل الأبيض, فقمت وقتها, وسألت عن شيخه الشّيخ أحمد, إذا كان يمتلك محل عطارة أم لا؟ فقال: لا إنه يتاجر بالملابس, فلم يشغل بالي هذا المنام, ولكن اليوم والمنام الذي جاءني شغل بالي كثيرًا, وجدتني كأني أجلس أمامه, ويلقني أورادًا , أو نتحدث في شيء يخص التّصوّف, وإذْ بهاتف يأمرني بالذّهاب

إليه, واتّباعه, والطربي علي يده, فاستيقظت علي صوت أذان الفجر؛ فتوضأتُ وصلّيت, وقرأتُ ختامَ الصّلاة, الذي كان قد أعطاه ليه الدّكتور أحمد البصيلي, عندما طلبت منه أورادًا.

ثمّ قمت إلي الفراش؛ لأستكمل نومي, واستيقظت علي صلاة الظّهر فارتديت ملابسي, وكنا في يوم الاثنين 23 يناير- 30 جمادي الآخرة, وذهبت إلي المسجد, كما هي عادتي, واصطحبت معي كتاب المدرسة الشّاذليّة؛ لاستكمال القراءة, عن الجمال, وقطب الأقطاب سيدي أبي الحسن الشّاذلي.

أدّيتُ صلاة الظّهر, وتوجّهت حيث المقام, وفتحت الكتاب.

كنا قد توقفنا عند المعروف بالوليّ الكبير – سيدنا عبد السّلام بن مشيش , لقد كان مقام بن مشيش بالمغرب كمقام الشّافعي في مصر, علي حد تعبير ابن عباد الروندي في المفاخر العليّة.

لقد كان ابن مشيش متمسكًا بالكتاب والسّنة, عاملًا بهما, ملتزمًا لهما, وهو القائل : أفضل الأعمال أربعة: المحبّة لله، والرّضا بقضاء الله، والزّهد في الدّنيا، والتوكّل علي الله، هذه أربعة.

وأما الأربعة الأخرى: فالقيام بفرائض الله، والاجتناب لمحارم

الله، والصّبر عمّا لا يعنى، والورع عن كل شيء يلهى.

وقال سيدي أبو الحسن الشّاذلي: أوصاني أستاذي ¬ تعالي، قائلا : "حدد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وفوق كل شيء، وقريبًا من كل شيء، ومحيطًا بكل شيء، بقرب هو وصفه، وبإحاطة هي نعته، وعد عن الظرفيّة والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصّحبة والقرب بالمسافات، وعن الدّور بالمخلوقات. وامحق الكلّ بوصفه: الأوّل، والآخر، والظّاهر، والباطن، كان الله ولا شيء معه."

أما صاحب لطائف المنن، فإنّه يروي عنه حديثًا جميلًا في المحبّة، حديثًا يشعرك بأن المتحدث قد جال في ميدان المحبّة جولة صادقة، وسار في طرقاتها سيرًا موفقًا، ورتع في رياضها، وشرب من حياضها، فأطال الشّرب، يقول صاحب اللطائف :

وقال الشّيخ القطب ابن مشيش شيخ أبي الحسن: " الزم الطهارة من الشّرك، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدّنيا، وكلمّا ملتَ إلى الشّهوة؛ أصلحت بالتّوبة ما أفسدت بالهوى.

وعليك بمحبّة الله علي التّوقير والنّزاهة، وأدمن الشّرب بكأسها مع السُّكر والصّحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت، حتي يكون سكرك وصحوك به، وحتي تغيب بجماله عن المحبّة، وعن

الشّراب والشّرب والكأس، بما يبدو له من نور جماله, وقدس كمال جلاله "

ولعلي أحدث من لا يعرف المحبّة، ولا الشرّاب، ولا الشّرب، ولا الكأس ولا السُّكر، ولا الصّحو، فقال له القائل :

أجل، وكم من غريق في شيء لا يعرف بغرقه، فعرفني ونبّهني عما أجهل، أو لمّا منّ به عليّ وأنا عنه غافل؟ قلت لك: نعم، المحبّة آخذة من الله تعالي قلب من أحبّ, بما يكشف من نور جماله، وقدس كمال جلاله.

وشراب المحبّة: مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنّعوت بالنّعوت، والأفعال بالأفعال، ويتّسع فيه النّظر لمن شاء الله , .

والشّرب سقى القلوب, والأوصال, والعروق, من هذا الشرّاب، حتي يسكر, ويكون الشّرب بالتّدريب بعد التّذويب, والتّهذيب، فيسقى كلٌّ علي قَدْره.

فمنهم: من يسقي بغير واسطة والله سبحانه، يتولى ذلك منه له.

ومنهم: من يسقي من جهة الوسائط, كالملائكة, والعلماء, والأكابر من المقرّبين.

فمنهم: من يسكر بشهود الكأس, ولم يذق بعد شيئًا، فما ظنّك بعد بالذّوق، وبعد بالشّرب، وبعد بالري، وبعد بالسُّكر بالمشروب, ثمّ الصّحو بعد ذلك علي مقادير شتّي، كما أنّ السُّكر أيضًا كذلك. والكأس مغرفة الحقّ، يغرف بها من ذلك الشرّاب الطّهور, المحض الصّافي لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه.

فتارة يشهد الشارب تلك الكأس بصورة. وتارة يشهدها معنويّة. وتارة يشهدها علميّة.

فالصّورة : حظ الأبدان والأنفس.

والمعنويّة : حظ القلوب, والعقول.

والعمليّة : حظ الأرواح, والأسرار.

فيا له من شراب! ما أعذبه! فطوبى لم شرب منه, وداوم عليه, ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقد يجتمع جماعة من المحبّين فيسقون من كأس واحدة. وقد يسقون من كؤوس كثيرة، وقد يسقى الواحد بكأس وكؤوس.

وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الكؤوس، وقد يختلف الشّرب من كأس واحدة, وإن شرب منه الجمُّ الغفير من الأحبّة.

وقد رسم الشّيخ ابن مشيش حياة أبي الحسن فيما يستقبله من أيام, وذلك أنه حينما انتهت مدّة إقامة أبي الحسن عنده, فقال له :

وهو يودعه: يا عَلىُّ ارتحل إلى إفريقيا واسكن بها بلدا تسمى (شاذلية)، وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتى عليك من قبل السّلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى أرض المشرق وبها ترث القطابة.

وأوصاه قائلًا : "يا علي الله الله، والناس الناس، نزِّه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التّمايل من قِبَلهم، وعليك بحفظ الجوارح، وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عندك، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك, وقد تمّ ورعك، وقل: اللهمّ ارحمني من ذكرهم، ومن العوارض من قِبَلهم، ونجنى من شرهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم، وتولّني بالخصوصية من بينهم؛ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ "

وودع الشّيخ شيخه, وسار وقد وضح أمامه الطّريق.

وما من شك في أنّ أبا الحسن قد هيأ الله له سبل الهداية,

عابدًا, أو مهاجرًا, وسائحًا في سبيل الله, كان منار الهداية, ومبعث نور أينما حلّ, خصوصًا بعد أن هداه الله إلى شيخه ابن مشيش.

ولكنه لم يكن بعد قطبًا.. فالقطابة سيرتها في أرض المشرق.

فسافر إلى جبل زغوان, وصحبه في رحلته هذه أبو محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي, من أهل شاذلية, وكان رجلا تقيًا صالحًا مكاشفتا.

ومن ثم كانت رحلة أبي الحسن إلي جبل زغوان لها فائدتان :

الأولي: هي تفرغه للعبادة, ولا بد من هذا التّفرغ ما دام الإنسان لم يأته الإذن بعد بالدّعوة, لا بد من التّفرغ؛ لاستكمال نقص, أو للبعد عن الفتنة, أو للتّغلب علي آثار هوى.

ولا بد من هذا التّفرغ استجمامًا روحيًا وعلاجًا نفسيًا, وبعثًا لكوامن من الفضائل.

ولا بد من هذا التّفرغ؛ ليرقى في مدارج السّالكين, وليحقق العروج في معارج القدس, وليسرع الخطأ متدرجًا في منازل الأرواح.

أما الثانية: فإنّها منع اللاهين المتطفلين من الجلوس على مائدة الشّيخ الرّوحيّة, ذلك لأنه لن يذهب إلي جبل زغوان لرؤية

الشّيخ إلا محبًّا للمعرفة, جادًّا في طلبها.

وما كان الشّيخ علي الجبل محجوبًا عمن يريد لقاءه, كلا, ولكنه بذلك أتاح لنفسه الفرصة للتّعبد والمجاهدة.

أخذ الشّيخ يتعبد علي هذا الجبل دهرًا طويًا يصحبه طيلة هذه المدّة الشّيخ الصّالح أبو محمد الحبيبي, الولي المكشاف, وهو أول من صحب الشّيخ بشاذلية, وهو الذي روى من كرامات الشّيخ في هذه الفترة الشيء الكثير.

ويقول صاحب كتاب درة الأسرار: فيما حكي عنه قال: قرأ الشّيخ يومًا علي جبل زغوان سورة الأنعام إلى أن بلغ إلى قوله تعالي: { ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ}[1] ، أصابه حال عظيم , وجعل يكرّرها ويتحرّك, فكلّما مال إلى جهة مال الجبل نحوها , حتي سكن الجبل.

وما كانت حياتهم علي الجبل إلا على نباتات الأرض وأعشابها, حتي أنه لقد كادت أشداق أبي محمد الحبيب تتقرح أحيانًا؛ فيشفق عليه أبو الحسن, وينزل معه إلى شاذلية؛ ليجد غذاء لا يضرّ به.

وليس بغريب إذنْ أن نعرف أن الله سبحانه أنبع لهما عينًا,

(1) سورة الأنعام:70

تجرى بماء عذب.

وإن كانت الملائكة يراها الحبيبُ تحف بأبي الحسن, بعضها يسأله فيجيبه, وبعضها يسير معه.

وليس بغريب أن تأتي أرواح الأولياء, زرافات ووحدانًا يراها الحبيبي أيضًا تحف بأبي الحسن, وتتبرك به.

ويقول الإمام الغزالي عن خبرة وتجربة, عما يشاهده المريد الصّادق في أولّ طريقه إلي الله :

" ومن أول الطريق تبتدئ الكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائدَ. ثم يرتقي الحال من مشاهدة الصور والأمثال, إلى درجات يضيق عنها نطاق النّطق " وانتهت المدة التي قدر الله أن يقضيها الشّيخ بشاذلية, وما كانت هذه المدّة إلا فترة استعداد وتدريبٍ, وصقل روحيٍ, فلمّا تمّ ذلك كان لا مناص من الانتقال من الاستعداد إلى العمل.

أنها فترة الغار والتحنّث, حتي إذا امتلأ القلب بالله, وتطهرت النّفس من الرّجس أجمع, ورمت الشّيطان بالجمرات؛ فأصبحت خيرًا بحتًا, ونورًا يستضاء به, كانت المرحلة الثّانية : مرحلة الرّجوع إلى عبادة الله للهداية والإرشاد, فيؤمر الولي أن

يترك الخلوة والعزلة, وينزل إلى الميدان, مؤيدًا من الله يدعو إلى الله علي بصيرة, ويرشد مأذونًا مأمورًا.

ويحكي أبو الحسن كيفيّة نزوله من جبل زغوان, ومغادرة العزلة فيقول: قيل لي : يا علي اهبط إلى النّاس؛ ينتفعوا بك.

فقلت : يا رب أقلني من النّاس, فلا طاقة لي بمخالطتهم.

فقيل لي: أنزل فقد أصحبناك السّلامة, ودفعنا عنك الملامة.

فقلت : تكلني إلى النّاس آكل من دريهماتهم.

فقيل لي : أنفق يا علي, وأنا المليء إن شئت من الجيب, وإن شئت من الغيب.

ونزل الشّاذلي من على الجبل؛ ليغادر شاذلية, ويستقبل مرحلة جديدة. حكي فيما يتعلّق بنسبته إلى شاذلية قال : قلت : يا رب لمَ سميتني بالشّاذلي, ولست بشاذلي؟

فقيل لي : يا علي ما سميتك بالشّاذلي وإنّما أنت الشّاذ لي يعني: المفرد لخدمتي ومحبتي.

سافر الشّيخ من شاذلية إلى تونس, موطنًا النّفس علي تحمّل الابتلاء الذي سيصادفه في تونس, والذي أخبره به شيخه بقوله : "ويؤتي عليك بها من قبل السّلطنة ".

وما كان الشّيخ يجهل مدينة تونس, فقد ذهب إليها من قبل, ومكث فيها, وهاله ما كان فيها من فقر ومسغبة, وحاول ما استطاع أن يخفّف من لوعتا الجوع لدى الجياع, وتقول الروايات : إنه قابل الخضر, وأن الخضر أنقذه فيها من مأزق كان فيه, بسبب أريحيته وكرمه.

لقد أُمر أبو الحسن بالدّعوة, وبمجرد أن دخل تونس التفّ حوله مباشرة جماعة من الفضلاء, منهم: الشّيخ أبو الحسن علي بن مخلوف الصّقلي, وغيره, وكلّهم أصحاب كرامات علي حدّ تعبير صاحب درة الأسرار وكان من بينهم الشّيخ الصّالح أبو العزائم ماضي, تلميذ الشّيخ وخادمه. ثم كثر المريدون, وأخذوا يزدادون يومًا بعد يوم " إلي أن اجتمع عليه خلق كثير "

ثمّ بدأت الغِيرة تدبّ في قلب ابن البراء قاضى القضاة, وكلّما ازداد إقبال النّاس علي أبي الحسن؛ اشتدت الغيرة في قلب هذا الرّجل, إلي أن أصبحت تنهشه نهشًا, فضعف أمامها, وأعلن الحرب علي أبي الحسن.

كان ابن البراء فقيهًا, وفي ذلك الوقت "قاضى الجماعة", وكان يعدّ نفسه الزّعيم بغير منازع, وكان منصبه الرّسميّ يعلن أنه الزّعيم الدّيني الأكبر, وكان ينعم بهذه الزّعامّة التي أتته عن

طريق الدّين, والتي كانت في حقيقة الأمر زعامّة أشبه بالدّنيويّة منها بالدّينيّة, وكان ابن البراء يتخيّل أو يتوهّم أن له شعبيّة مع ما له من منصب رسمي, فلما رأى التفاف النّاس بأبي الحسن صور له خياله, أنّ الشّاذلي انتزع منه الزّعامّة الشعبيّة.

ولمّا كان الشّاذلي من العلماء في الفقه, والتّفسير, والحديث, وكان يفتي, ويشرح ويفسر, فقد خيّل لابن البراء أن ليس هناك ما يمنع من ناحيّة الشخصيّة, أو من ناحيّة العلم من أن يتولى أبو الحسن منصب " قاضى الجماعة ", وما المانع؟

وأخذ الوسواس مأخذه, وسولت النّفس الأمّارة بالسّوء ما سوّلت فأعلن ابن البراء الحرب علي أبي الحسن, ولم تتخذ الحرب سبيلًا شريفًا, فإنّ ابن البراء حينما رأى أنّه لا يمكنه القضاء علي أبي الحسن علميًا, أخذ يدسّ له عند السّلطان, لقد صوّر للسّلطان أنّه في طريقه إلى أن يصبح زعيمًا شعبيًا خطيرًا, والأمر ليس إلا أمر زمن فكلّما مرّ الزّمن ازداد تمكنًا وشعبيّة.

"إنه يدّعى الشرّف, وقد اجتمع عليه خلق كثير, ويدّعي أنه الفاطمي , ويشوش عليك بلادك " ومعني هذا: أن الملك في خطر.

وهذه الفكرة: "الملك في خطر" تفعل فعل السّحر في نفوس

الملوك, إنّها تقيمهم وتقعدهم, وتجعلهم لا يتورعون عن فعل أي شيء.

يقول صاحب درر الأسرار: وكان إذ ذاك السّلطان أبو زكريا ¬. فجمع ابن البراء جماعة من الفقهاء في القصبة, وجلس السّلطان خلف حجاب, وحضر الشّيخ أبو الحسن, وسألوه عن نسبه مرارًا, والشّيخ يجيبهم عنه, والسّلطان يسمع, وتحدثوا معه في كل العلوم, فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها, من العلوم الموهوبة, وما استطاعوا أن يجيبوه عنها, والشّيخ يتكلم معهم في العلوم المكتسبة, ويشاركهم فيها.

لقد سمع السّلطان الشّيخ يتكلم, لقد سمع هذا النّوع من الحديث الذي يقول فيه فيما بعد إمام المسلمين في مصر العز بن عبدالسّلام ناصحًا المستمعين, والمريدين :" اسمعوا هذا الكلام الغريب، القريب العهد من الله ".

لقد سمع السّلطان هذا الكلام القريب العهد من الله: فأعجبه وراعه, ورأى السّلطان شيخًا مهيبًا, وإن كان لا يزال في سن الفتّوة, ورأى السّلطان نضجًا في العلم, ونضجًا في التّفكير, وروحانيّة في الحديث, وشفافيّة في البصيرة, فقال لابن البراء: هذا الراجل من أكابر الأولياء, وما لك به طاقة.

ولوّح ابن البراء مرّة أخرى بالملك, وأنّه في خطر, وأنّه يعاديه لحبّه للملك, ولإخلاصه له, ولحرصه علي بقاء العرش, وقال للسلطان: والله لئن خرج الشّيخ في هذه السّاعة, ليدخلن عليك أهل تونس, ويخرجونك من بين أظهرهم, فإنّهم مجتمعون علي بابك.

وأثّر تلويح ابن البراء, أو تصريحه تأثيره في نفس السّلطان, فأذِنَ للفقهاء بالخروج, وأمر الشّيخ بالجلوس والبقاء.

وجلس الشّيخ هادئًا ساكن النّفس, مطمئن القلب, وطلب ماء وسجادة؛ فتوضأ وأخذ في الصّلاة, وهمّ أن يدعو علي السّلطان فنوى في سرّه: إنّ الله لا يرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق.

وبدل الدّعاء عليه, ألهمه الله أن يقول: "يا من وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، وهو العلي العظيم، أسألك الإيمان بحفظك إيمانًا يسكن به قلبي من هم الرزق، وخوف الخلق، واقرب مني بقدرتك قربًا تمحق به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك، فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا لسؤاله منك، وحجبته بذلك عن نار عدوّه، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحبّاء، كلا إنّي

أسألك أن تغيبني بقربك مني؛ حتى لا أرى ولا أحسّ بقرب شيء ولا ببعده عنّي، إنّك على كل شيء قدير.

وها هو ذا الشّيخ يصلي ويدعو, ويلجأ إلى مولاه طلبًا الرّضا والقرب, وأن يغيبه بالقرب في القرب, وبينما هو مستغرق في دعائه وتبتّله, إذْ بالمقادير ترتّب الأمر على وضع غير متوقع.

لقد كان عند السّلطان في ذاك الحين جارية, عزيزة عليه, أحبّها فملكت عليه جميع أقطاره, وفي لحظات مرّت سراعًا, أصابها وجع؛ فتألّمت واستغاثت, ولم تمهلها الأقدار فماتت من حينها, وما من شك في أنّ أجلها قد انتهي, وأنّ هذه اللحظة كانت مقدرة في علم الله من الأزل, لا ريب في ذلك, ولا ريب أيضًا في أنّ المقادير رتبت هذا, منذ أن منع الشّيخ من الخروج, فجاء موتها, وكأنّه عقاب للسّلطان علي منعه الشّيخ من الخروج. يقول صاحب درّة الأسرار: " وأغفلوا مجمرًا في البيت, فالتهبت النّار, فلم يشعروا حتي احترق كل ما في البيت من الفرش والثّياب, وغير ذلك من الذّخائر, فعلم السّلطان أنه أصيب من قبل هذا الوليّ ".

وكان للسلطان أخ عاقل, صالح متديّن, يحب أولياء الله تعالى, ويسعي إليهم, وكان يحبُّ الشّيخ ويتبرك به, ويزوره

مسترشدًا واستنصحا, وكان في هذا اليوم خارج المدينة, يتفقد بساتينه ويتنزّه فيها, فبلغه خبر ما جرى في قصر السّلطان, من مناقشات وحوادث, فحضر مسرعًا, والتقى بأخيه وقال له :

"ما هذا الأمر الذي أوقعك فيه ابن البراء, أوقعك والله في الهلاك, أنت وكل من معك "

ثم دخل علي الشّيخ وأخذ يعتذر إليه ويرتضاه, فأعلن الشّيخ موقفه من مثل هذه الأمور, وبين لأخي السّلطان أن الكون وما فيه, ومن فيه في قبضة الله الكبير المتعال, وقال له : " والله ما يملك أخوك لنفسه نفعًا, ولا ضرًا, ولا موتًا, ولا حياة, ولا نشورًا, فكيف يملكها للغير؟! كان ذلك في الكتاب مسطورًا ".

وخرج الشّيخ إلي داره في اليوم نفسه, واستمرّ كعادته في الارشاد والنّصح والتّدريس, ولكن ابن البراء لم يكفَّ عن الإيذاء, فكان الشّيخ يقابله دائمًا بما جبله الله عليه من التّسامح, وكان يلقي عليه السلام إذا صادفه في مكان, فلا يرد ابن البراء عليه السلام.

وعزم الشّيخ علي الحجّ فأمر أصحابه بالنّقلة إلي المشرق, قبل موعد الحجّ بزمن طويل, وذلك ليمكث بمصر فترة من الزّمن, قبل الذّهاب إلي الدّيار المقدّسة.

وبدأ الرّكب يتحرّك, ونهضت تونس مودعة, وصارت حركة, وكان هناك ضجيج, وعلمت تونس كلّها أنّ أبا الحسن راحل, وعلم السّلطان فيمن علم وظن أنّ أبا الحسن يريد الخروج نهائيًا من تونس؛ فوقع الرّعب في قلبه, وأسرع بتوجيه وفد يرجوه في العودة, فقال الشّيخ: "ما خرجت إلا بنيّة الحجّ إنْ شاء الله, ولكن إذا قضي الله حاجتي, أعود إن شاء الله ".

يقول صاحب درة الأسرار: "فلما توجّهنا إلى الشّرق, ودخلنا الإسكندريّة, عمل ابن البراء عقدًا بالشّهادة, أنّ هذا الواصل إليكم شوش علينا بلادنا, وكذلك يفعل في بلادكم". فأمر السّلطان أن يعتقل بالإسكندريّة, فأقمنا بها أيامًا. وكان السّلطان رمى رمية على أهل البلد وكان مشايخ البلد يقال لهم القبائل فلما سمعوا بالشّيخ أتوا إليه يطلبونه في الدعاء فقال لهم غدا إن شاء الله تعالى نسافر إلى القاهرة ونتحدث مع السّلطان فيكم، فسافرنا وخرجنا من باب السدرة والباب فيه الحيادة والوالي : فلا يخرج أحد ولا يدخل أحد حتى يفتش فما كلمنا أحد ولا علم بنا، فلما وصلنا القاهرة أتينا القلعة : فاستؤذن على السّلطان فقال: كيف ونحن أمرنا أن يعقل بالإسكندرية، فدخل على السّلطان، والقضاة والأمراء

مجتمعون فجلس معهم ونحن ننظر إليه فقال له الملك: ما تقول أيها الشّيخ، قال جئت أشفع إليك في القبائل : فقال : اشفع في نفسك، هذا عقد بالشّهادة فيك وجهه ابن البراء فيك من تونس بعلامته فيه ثم ناوله إياه فقال له أنا وأنت والقبائل في قبضة الله، وقام الشّيخ : فلما مشى قدر العشرين خطوة حرّكوا السّلطان فلم يتحرك ولم ينطق، فبادروا إلى الشّيخ, وجعلوا يقبّلون يديه , ويرغّبونه في الرّجوع إليه قال: فرجع إليه وحرّكه بيده فتحرّك ونزل عن سريره, وجعل يستحلّه, ويرغب منه في الدّعاء.

ثم كتب إلى الوالي بالإسكندريّة أن يرفع الطلب عن القبائل, ويرد جميع ما أخذه منهم, وأقمنا عنده في القلعة أيامًا.

اهتزت بنا الدّيار المصريّة إلي أن طلعنا إلى الحجّ, ورجعنا إلي مدينة تونس ".

رجع الشّيخ إلى مدينة تونس, واستمرّ بها هاديًا مرشدًا داعيًا إلى الله, ورسوله, ولكن ثورة ابن البراء لم تهدأ, بل علي العكس زادت بنسبة زيادة أنوار الشّيخ, وزيادة أتباعه, وفي هذه الأثناء قدِم إلى تونس الولي أبو العباس المرسى, فلما اجتمع الشّيخ به, ورآه, قال : " ما ردني لتونس إلا هذا الشابّ " الذي لازمه فلم

يفارقه منذ لقائه به, إلى أن انتهت حياة الشّيخ, فكان الخليفة بعده, واستمرّ الشّيخ بتونس لا يبالي بمكائد ابن البراء, وكان يعلم أنّ مقامه بتونس مؤقت, بناء علي ما ذكره له شيخه كما سبق, ولكنّه كان مقيمًا ينتظر الإذن بالسّفر, وما كان له وقد حضر إلى تونس بعد الحجّ.

وأتي له الإذن. يقول ¢ : رأيت النبي ' في المنام فقال لي: "يا عَلىُّ انتقل إلى الدّيار المصريّة, فإنّك تربى فيها أربعين صديقًا".

وبرغم أنه كان في زمن الصّيف وشدّة الحرّ, فإنهار أصحابه بالاستعداد للسّفر, فلمّا تمّ ذلك في سرعة, سافر الشّيخ إلى الدّيار المصريّة.

يقول صاحب درة الأسرار : "وكان مسكنه بالإسكندريّة ببرج من أبراج السّور, حبسه السّلطان عليه, وعلي ذريّته, دخلته عام 715 ç, في أسفله ماجل كبير, ومرابط للبهائم وفي الوسط منه مساكن للفقراء, وجامع كبير, وفي أعلاه أعلية لسكّانه ولعياله, وتزوج هناك وولد له أولاد.

ولقد كانت إقامته بمصر, مصداقًا لما نودي به حينما دخلها يقول ¢ : لما قدمت الدّيار المصريّة قيل لي : " يا علىُّ ذهبت أيام المحن، وأقبلت أيام المنن، عشر بعشر، اقتداء بجدك ' "

لقد كانت مصر حينئذ تعتز بمجموعة من أكرم العلماء, وأفضلهم علمًا, وخلقًا, وصلاحًا, مجموعة وهبت نفسها لله, وأسلمت قيادتها له؛ فأحاطها الله بعنايته وتكفّلَها برعايته, ووضع حبها في قلوبِ النّاس, ووضع مهابتها في أفئدتهم, فكانت محبوبة مهيبة.

ولقد استقبلت هذه المجموعة أبا الحسن أجمل استقبال وأحسنه ,ورافقته متتلمذة ومتآخية.

يقوب صاحب المفاخر العليّة نقلًا عن ابن مغازل: "إن الشّيخ لما قدم من المغرب الأقصى إلي مصر, صار يدعو الخلق إلى الله تعالى, فتصاغر وخضع لدعوته أهل المشرق والمغرب قاطبة, وكان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل عصره, مثل: سيدي الشّيخ عز الدّين بن عبدالسّلام، والشّيخ تقي الدّين, بن دقيق العيد, وغيرهم من سلاطين علماء الدّين شرقًا وغربًا.

استمرّ الشّيخ يدعو إلى الله تعالى بمصر, إلى أن كان شهر شوال سنة 656 ç, وفي هذا الشّهر أخذ الشّيخ في السّفر إلى الأراضي المقدّسة للحجّ, فلمّا كان في حميثرا بصحراء عذاب, جمع الشّيخ أصحابه في إحدى الأمسيّات, وأوصاهم بأشياء, وأوصاهم بحزب البحر, وقال لهم: " حفّظوه لأولادكم؛ فإنّ فيه

اسم الله الأعظم"

ثم خلا بأبي العباس المرسى وحده, وأوصاه بأشياء "واختصّه بما خصّه الله به من البركات "

ثمّ وجّه الحديث لأصحابه قائلًا: " إذا أنا مِتُّ فعليكم بأبي العباس المرسى, فإنّها لخليفة من بعدي, وسيكون له بينكم مقام عظيم, وهو باب من أبواب الله ´ "

وبات تلك الليلة متوجّها إلى الله تعالى, ذاكرًا يسمعه أصحابه, وهو يقول: " إلهى، إلهى " فلمّا كان السّحر سكن، فظننا أنّه نام، فحرّكناه فوجدناه ميتًا.

وجاء الشّيخ أبو العباس المرسى, فغسّله وصلّي الجميع عليه, ودفن حيث توفاه الله.

يقول أبو العزائم ماضي يصف الشّيخ: "كانت صفته آدم اللون، نحيف الجسم، طويل القامة، خفيف العارضين، طويل أصابع اليدين كأنه حجازي, وكان فصيح اللسان، عذب الكلام".

وكان يأخذ زينته عند كل مسجد، فإنّ أبا الحسن كان يتحلى دائمًا بالثّياب الحسنة, دخل عليه مرّة فقير, وعليه لباس من شعر، فلمّا فرغ الشّيخ من كلامه، دنا من الشّيخ وأمسك بملبسه, وقال: يا سيدي، ما عُبد الله بمثل هذا اللباس الذي

عليك, فأمسك الشّيخ بملبسه فوجد فيه خشونة فقال: ولا عُبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، لباسي يقول : أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول : أنا فقير إليكم فأعطوني.

ويعقب ابن عطاء الله السكندري علي هذه القصة فيقول: وهكذا طريق الشّيخ أبي العباس, وشيخه أبي الحسن, وطريقة أصحابهما: الإعراض عن لبس زي ينادي علي سِرِّ اللابس بالإفشاء, ويفصح عن طريقه بالإبداء، ومن لبس الزي فقد ادعى.

ثم بيّن ابن عطاء الله : أنّه لا ينتقد زيّ الفقراء, وأنّه لا حرج على اللابس هذا الزّى, ولا على غير اللابس ما داما من المحسنين.

وفي يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسى علي الشّيخ أبي الحسن وفي نفسه أن يأكل الخشن, وأن يلبس الخشن, فقال له الشّيخ :

يا أبا العباس: اعرف الله, وكن كيف شئت, ومن عرف الله, فلا عليه أيضًا إنْ أكل هنيئًا, وشرب هنيئًا.

وما كان أبو الحسن يتعمد قطّ, أن يأمل الغليظ من الطّعام, أو يقتصر على غير الزلال البارد من الشرّاب, إنه يقول:

"يا بنيّ بردِ الماء فإنك إذا شربت الماء الساخن, فقلت الحمد لله تقولها بكزازة, وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله, استجاب كل عضو منك بالحمد لله "

والأصل في هذا قول الله سبحانه, حكاية عن موسي ؛ : {ﭽ ﭽ
ﭻ ﭺ ﭽ ﭽ ﭾ ﭾ ﮀ ﮀ ﮀ ﮀ ﮂ ﮃ ﮌ ﮍ}[1] .

ألا ترى كيف تولى إلى الظل قصدًا لشكر الله تعالى على ما نله من النّعمة؟

يقول ابن عطاء الله : "وأما لبس اللّباس الليّن, وأكل الطّعام الشّهي, وشرب الماء البارد, فليس القصد إليه بالذي يوجب التّعب من الله, إذا كان معه الشّكر لله ".

ويقول الأستاذ علي سالم عمار:" كان الشّاذلي يلبس الفاخر من الثّياب, ويركب الفارّه من الدّواب, ويتّخذ الخيل الجياد ".

والقاعدة العامّة علي كل حال:" أعرف الله, وكن كيف شئت"

وذلك لأن من عرف الله؛ تعلق قلبه به, وامتلأ بحبّه, فلا يتأتى منه إلا الفضيلة. وما كان الشّاذلي من الذّين يسعون وراء

---

(1) سورة القصص:24.

الشّهرة الزّائفة أو غير الزّائفة, ولكن النّاس لا بد لهم دائمًا من هزة قويّة, تلفت أنظارهم وأرواحهم.

من كل ذلك نرى أبا الحسن في الجانب المادّي البشريّ, غير متزمّت, وهو الذي يقول: " ليس هذا الطّريق بالرّهبانيّة, ولا بأكل الشّعير, والنّخالة, وإنّما هو بالصّبر على الأوامر, واليقين في الهداية, كما قال الله تعالى: {ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﭼ}(1).

كان أبو الحسن الشّاذلي جميل المظهر, عذب الحديث, فصيح اللّسان, غير متزمّت في المأكل والمشرب, يحبّ الخيل ويقتنيها ويركبها فارسًا, ويركبها في المواسم الدّينيّة.

يقول سيدي عبد الوهاب الشعراني:" بلغنا أنّ الشّيخ أبا الحسن الشّاذلي لما فنى اختياره مع الله, مكث ستة أشهر, لا يتحرى أن يسأل الله شيئًا في حصول شيء, ثمّ نوى في سره: اسألنا عبوديّة لا ترجيح فيها للعطاء عن المنع.

قال: فسألت الله ورجوته امتثالًا لا تحجيرًا عليه, فإنّه يخلق ما يشاء ويختار, وليس معه اختيار ".

لقد فني اختيار أبي الحسن مع الله, وهذه المرتبة لا يتأتى للإنسان أن ينالها في ابتداء حياته السّائرة إلى الله, لا بدّ أن

---

(1) سورة السجدة:24

يسبقها جهاد شاقّ، كيف وصل أبو الحسن إلى أن يسترسل مع الله كما يريد، فتفني إرادته في إرادته واختياره، وأن يكون بالله إيرادًا وإصدارًا؟

لقد كان الجانب العلمي من العناصر الأولى، التي حدّدت شخصيّة الشّاذلي، لقد بدأ الدّراسة والتّحصيل صغيرًا، فتثقّف كأحسن ما يكون المثقّف، لقد تثقّف عن الطّريق العادي، فحفظ القرآن، ودرس السّنة، ودرس العلوم الدّينيّة وسائل، وغايات " ولم يدخل في علوم القوم حتي كان يعدّ للمناظرة في العلوم الظّاهرة " وكان ذا علوم جمّة، وهو صاحب العلوم الغزيرة.

كانت القاعدة عند الشّيخ أبي الحسن الشّاذلي، والشّيخ أبي العباس وتاج الدّين بن عطاء الله، والشّيخ ياقوت العريش في قبول الطلّاب: ألا يدخل أحد الطّريق ألا بعد تبحّره في علوم الشّريعة وآلاتها، بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجّج الواضحة، فإذا لم يتبحّر؛ لا يأخذون عليه العهد.

ويصل أبو الحسن إلى الذّروة، حينما يعتبر الجهل والرّضا به من الكبائر، بل حينما يعتبره من أكبر الكبائر، ويقول: "لا كبيرة عندنا أكبر من اثنين: حبّ الدّنيا بالإيثار، والمقام علي الجهل

بالرّضا ".

لأنّ حبّ الدّنيا أساس كل خطيئة, والمقام علي الجهل أصل كلّ معصية.

أن لله أسرارًا لا يسع فيها الرّسم, ولا يليق بها الكتم, أن ترسم في الدواوين لعمى البصائر, وضعفاء النجاز. ولا يليق بها الكتم؛ لوضوحها وشدة ظهورها, فلا تعبأن بهم مع كثرة حجمهم, وذلّ للحقّ، واخضع له فيما هم فيه. وأعرض عنهم فيما لا علم لهم به. وقد أمر الله تعالى نبينا محمدا ' بالاقتداء بإبراهيم وسائر الأنبياء ج وهو الفاضل الذي لا يصل إليه أحد.

فإن تكن منهم فازدد بعلمك وعملك, فقرًا إلى الله وتواضعًا لعباده, واعطف بالرّحمة علي عامّة المؤمنين, وإن كانوا ظالمين إلا حيث أمرك الله بالغلظة عليهم مع الدّعاء الصّالح والدفع عنهم.

يقول صاحب المفاخر عن أبي الحسن: "وهو صاحب الإشارات العليّة, والعبارات السنيّة, جاء في طريق القوم بالأسلوب العجيب, والمنهج الغريب, الذي جمع بين العلم والحال, أو الهمّة والمقال ".

قال الشّيخ أبي الحسن متحدثًا عن معركة المنصورة: "كنت

في المنصورة فلما كانت ليلة الثّامن من ذي الحجّة بتّ مشغولًا بأمر المسلمين، وبأمر الثّغر، وقد كنت أدعو الله وأتضرّع إليه في أمر السّلطان والمسلمين.

فلما كان آخر الليل رأيت فسطاط واسع الأرجاء، عاليًا في السّماء يعلوه نور، ويزدحم عليه خلق من أهل السّماء وأهل الأرض، عنه مشغولون، فقلت : لمن هذا الفسطاط؟ فقالوا: لرسول الله ‘ ، فبادرت إليه بالفرح، ولقيت علي بابه عصابة من العلماء والصّالحين، قريبا عددهم من السبعين، أعرف منهم الفقيه، عز الدّين بن عبد السّلام، وغيره من العماء.

وأردت أن أتقدم لرسول الله ‘، فألزمت نفسي التّواضع والأدب مع الفقيه ابن عبدالسّلام وقلت: لا يصلح لك التّقدم قبل عالم الأمّة في هذا الزّمان، فلما تقدّم وتقدّم الجميع، ورسول الله ‘ يشير إليهم يمينًا وشمالًا: أنِ اجلسوا، وتقدّمت وأنا أبكي بالهمّ وبالفرح: من أجل قربي لرسول الله ‘ بالنسب، وأمّا الهمّ فمن أجل المسلمين والثّغر وهم طلبي إليه ‘، فمدّ يده حتّى قبض على يدي، وقال:

لا تهتمّ كلّ هذا الهمّ من أجل الثّغر، وعليك بالنّصيحة لرأس الأمر، يعني: السّلطان، فإن ولى عليهم ظالم فما عسى

يكون؟ وجمع أصابع يده الخمسة في يده اليسرى، كأنّه يقلّل المدّة. وإنْ ولى عليهم تقى فـ { ﯓ ﯔ ﯕ } وبسط يده اليمنى واليسرى.

وأما المسلمون فحسبك الله، ورسوله، وهؤلاء المؤمنون، أي: العلماء والفقهاء، والصّالحون الذين بالمجلس، وقال: {ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ }[1] .

وأما السّلطان فيد الله مبسوطة عليه برحمته، ما والى أهل ولايته، ونصح المؤمنين من عباده، فانصحه، واكتب له، وقُل في الظّالم عدوّ الله قولًا بليغًا.

فقلت: نصرنا وربِّ الكعبة، وانتهت ونصر الله المسلمين نصرًا مؤزرًا، وأُسر الملك لويس، وأُسر معه الكثيرون من قوّاده، وأشاد الشّعراء بهذا النّصر ".

يقول ابن عطاء الله: "وكان الشّيخ أبو الحسن يكره المريد المتعطّل، ويكره أنْ يسأل تابعه النّاس، وقد كان جوّادًا بما يملك، وكريمًا يكره البخل، ويحثُّ على طرق باب الأسباب، والعمل "

ويقول أبو الحسن: "لكلّ ولى حجاب" أي: سترٌ يحجبه عن اعتقاد النّاس فيه وأنا حجابي الأسباب ".

---

(1) سورة المائدة:56

يقول أبو العباس فيما رواه ابن عطاء الله:

"دخلت يومًا علي الشّيخ أبي الحسن فقال لي: إنْ أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحدًا شيئًا, وإنْ أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله. فقلت في نفسي: كان النبي ‘ يقبل الهديّة وقال : " ما أتاك من غير مسألة فخذه "

فقال الشّيخ : كأنك تقول كان النبي ‘ يقبل الهديّة : وقال : ما أتاك من غير مسألة فخذه؟ النبي ‘ قال الله في حقه {أ ب ب ٻ}[1].

متي أوحى الله إليك؟ إن كنت مقتديًا به في الأخذ, فكن مقتديًا به في كيف يأخذ؟ كان ‘ لا يأخذ شيئًا إلا ليثيب من يعطيه, ويعوضه عليه "

" فإن نظرت نفسك وتقدست هكذا, فاقبل وإلا فلا "

والنّظريّة الشّاذليّة في الغنى والفقر تفضل الغنىّ الشّاكر علي الفقير الصّابر, وتعلل ذلك بأنّ الصّبر فضيلة في الدّنيا فقط, أمّا الشّكر : فإنّه فضيلة في الدّنيا والآخرة.

قال أبو الحسن: هممت مرّة أن أختار القلّة من الدّنيا عَلى

---

(1) سورة الأنبياء:45

الكثرة, ثمّ أمسكت, وخشيت سوء الأدب, فلجأت إلى ربّي, ورأيت في النّوم:

كأنّ سليمان ' جالس, وحوله العسكر, ورفع لي عن قدوره وجفانه, فرأيت أمرًا كما وصفه الله تعالى بقوله: { د ئا ئا ئه}(1).

فنويت: لا تختر مع الله شيئًا, وإن اخترت فاختر العبوديّة لله تعالى, اقتداء برسول الله ' حيث قال: عبدًا رسولًا , وإن كان لا بدّ فاختر ألا تختار, وفرّ من ذلك المختار إلى اختيار الله. فانتبهت من نومي, فرأيت بعدها قائلًا يقول لي :

إن الله اختار لك أن تقول: "اللهمّ وسّع على رزقي من دنياي, ولا تحجبني بها عن أخراي, واجعل مقامي عندك دائمًا بين يديك, وناظرًا منك إليك, وأرني وجهك, وواربي عن الرّؤية, وعن كل شيء دونك, وارفع البيْن فيما بيني وبينك, يا من هو الأوّل والآخر, والظّاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ".

ممّا يروي ابن عطاء الله في لطائف المنن قال: استشفع طالب بالشّيخ أبى الحسن, إلى القاضي تاج الدّين أن يزاد على مرتبه, فذهب الشّيخ إليه, فأكبر القاضي تاج الدّين مجيئه, وقال له: يا سيدى فيم جئت؟ فقال: من أجل فلان الطّالب

---

(1) سورة سبأ:13

تزيده في مرتبه عشرة دراهم.

فقال القاضي: يا سيّدى, هذا له في المكان الفلاني كذا, وفي المكان الفلاني كذا, وفي الموضع الفلاني كذا وكذا

فقال له الشّيخ : يا تاج الدّين, لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم, تزيده إياها, فإنّ الله تعالى لم يقنع للمؤمن بالجنة جزاءً, حتي زاده النّظر إلى وجهه الكريم.

قال ابن دقيق العيد: جهل ولاة الأمر بقدر الشّيخ أبى الحسن الشّاذلي؛ لكثرة تردّده في الشّفاعات.

وعلّق ابن عطاء الله علي هذا قائلًا : إنّ هذا الأمر لا يقوى عليه إلا عبد متخلّق بأخلاق الله تعالى, بذل نفسه وأذلّها في مرضاة الله, وعلم وسيع رحمة الله, فعامل عباد الله متمثلًا لقول رسول الله ﷺ: **"الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"**[1].

يروي صاحب درّة الأسرار فيقول: وقال ¢ وقد أراد أن يمشى للبعض في الدفع عن رجل من الصّالحين : "اللهمّ اجعل مشيي إليه تواضعًا لوجهك, وابتغاء لفضلك, ونصرة لك

(1) سنن أبو داود، كتاب :: الأدب، باب في الرحمة، حديث رقم: 4941.

ولرسولك, وزيّني بزينة الفقراء المهاجرين, الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم, يبغون فضلًا من الله ورضوانًا, وينصرون الله ورسوله, أولئك هم الصّادقون, وخصّني بالمحبّة والإيثار, ورفع الحجّاب من الصّدور في الليل والنّهار, وقنى شحّ نفسي, واجعلني من الفالحين, واغفر لنا ولإخواننا الذي سبقونا بالإيمان, ولا تجعل في قلوبنا غلًا للذين آمنوا, ربنا إنك رءوف رحيم "

يقول صاحب لطائف المنن عن أبى الحسن: " له السياحيات الكثيرة, والمنزلات الجليلة ".

لقد ساح؛ ليخلو إلى الله, وساح؛ لتصفو نفسه, وساح؛ ليتمكن من التّركيز والتّجمع, فيلقى بنفسه كليّة, وبكيانه كلّه في الرّحاب الإلهيّ مستسلمًا مسلمًا, عبدًا أسلم القيادات كلّها: جسمًا ونفسًا, وعقلًا وروحًا , وقلبًا إلى من بيده الأمر.

أسلمها اختيارًا راضيًا, أسلمها إسلام المحبّ المغتبط, الذى يتفانى دائمًا في إسلام الكِيان كلّه, حتى لا يرى ولا يسمع, ولا يحس ولا يشم, ولا يذوق إلا من أسلم إليه كيانه.

كان يسيح؛ ليصل إلى ما يطلبه في حزبه الكبير, قائلًا: "إني أسألك أنْ تغيبني بقربك منّى, حتّى لا أرى ولا أحس بقرب شيء, ولا ببعده عنّى, إنّك على كل شيء قدير "

يقول أبا الحسن في تأكيد يؤيّده التّاريخ كلّه: "اللهمّ إنّ القوم قد حكمت عليهم بالذلّ حتى عزّوا, وحكمت عليهم بالفقد حتّي وجدوا, فكلّ عزّ يمنع دونك فنسألك بدّله ذلًا, تصحبه لطائف رحمتك, وكلّ وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدًا, تصحبه أنوار محبّتك "

يقول صاحب المفاخر العليّة عن الشّيخ: انتقل إلى مدينة تونس, وهو صبىّ صغير, وتوجّه إلى بلاد المشرق, وحجّ حجّات كثيرة, ودخل العراق.

وما رواه أبو الحسن وكان ذلك في أوائل سلوكه: "كنت أنا وصاحب لي, قد أوينا إلى مغارة؛ نطلب الوصول إلى الله, فكنّا نقول: غدًا يفتح لنا, بعد غد يفتح لنا, فدخل علينا رجل له هيبة, فقلنا من أنت؟

فقال: أنا عبد الملك, فعلمنا أنه من أولياء الله, فقلنا له: كيف حالك؟

فقال : كيف حال من يقول : غدًا يفتح لي, بعد غد يفتح لي؟ فلا ولاية ولا فلاح يا نفس, لمَ لا تعبدين اللّهَ للّهِ.

قال: فتفطّنا من أين دخل علينا؟ فتبنا إلى الله واستغفرنا؛ ففتح لنا "

ويقول أبو الحسن أيضًا عن سياحته في بداية الأمر :

كنت في سياحتي في مبدأ أمرى، حصل لي تردد، هل ألزم البراري والقفار للتفرغ للطاعة، والأذكار، أم أرجع إلى المدائن والدّيار؛ لصحبة العلماء والأخيار؟

فوصف لي وليٌّ هنالك، وكان برأس جبل، فصعدّت إليه، فما وصلت إليه إلا ليلًا، فقلت في نفسي: لا أدخل عليه في هذا الوقت فسمعته يقول : من داخل المغارة " اللهمّ إن قومًا سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهمّ وإني أسألك اعوجاجَ الخلق علىَّ؛ حتى لا يكون ملجئي إلا إليك ".

قال: فالتفت إلى نفسي، وقلت : يا نفسُ انظري من أي بحر يغترف هذا الشّيخ؟ فلما أصبحت دخلت عليه؛ فأرعبت من هيبته، فقلت له: يا سيدي كيف حالك؟

فقال: أشكو إلى الله من برد الرّضا والتّسليم، كما تشكو أنت من حرّ التّسليم والاختيار.

فقلت: يا سيدي أمّا شكواي من حرّ التّدبير والاختيار، فقد دقته وأنا الآن فيه، وأمّا شكواك من برد الرّضا والتّسليم، فلماذا؟

فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله.

قلت: يا سيدي سمعتك البارحة, تقول: اللهمّ إن قومًا سألوك أن تسخّر لهم خلقك, فسخرت لهم خلقك, فرضوا منك بذلك, اللهمّ وانى أسألك اعوجاج الخلق علىّ؛ حتى لا يكون ملجئي إلا إليك.

فتبسّم, ثمّ قال : يا بنىّ عوض ما تقول: سخر لي خلقك, قل: يا رب كن لي, أترى إذا كان لك أيفوتك شيء؟ فما هذه الجبانة؟".

أعود إلى قصتي فأقول: ثم رفع آذان المغرب, وجاء أحد أبناء مدام هدى, وأخبرني بالقدوم إلى ساحة: عقيل مظهر؛ لتناول الطّعام, فأدّيت صلاة المغرب, وذهبت معه, وهناك اجتمعنا, وقرأنا بردة المديح, ولمّا فرغنا منها, ذهبنا إلى زيارة ساحة الحجّة زكيّة, وكان بصحبتي الكابتن محمد, ووالدة ملك محمود, وملك يوسف, ووالدها, دخلنا السّاحة وعلي يسارها مقام الحجّة زكيّة. فدخلنا, وقرأنا الفاتحة, وأنشدنا, ثمّ شعرت بأنّي أريد أن أرتمي في أحضانها, فطلبت من خادم السّاحة, أنْ يأذن لنا بالدخول داخل المقام, ففتح لنا المقام ودخلت, وما شعرت به بين أحضانها من راحة, لا يقدر بثمن, وخرجنا, ثم توجّهنا إلى حجرتها, فتحنا الباب, فوجدت الغرفة بها نور أخضر, خافت

مريح للعين، وتنبع منها رائحة زكيّة حقًا.

فسمّيْنا الله تعالى، ودخلنا فوجدت صورتها، فقلت في نفسي: إن هذا جمالها وهي عجوز، فكيف وهي بكامل صحتها وفي شبابها؟ وكيف لهذا الجمال كلّه لا يخدم سيدنا أبى الحسن الشّاذلي؟ فقد أفنت الجمال في حرم الجمال، ولا يليق بالجمال إلا الجمال، ووجدنا أيضًا تلفازًا، يرجع إلي أقدم السّنوات، يشبه الرّاديو القديم، به شاشة لا تتعدّى كفّ اليدّ، والتّليفون وكان علي أيامها يسمّي: الترك، به دائرة أرقام تدور مع وضع الأصبع علي الرّقم، وكان لا يوجد إلا عند أغنياء الزّمان، أظنّ أنّه يرجع إلي الخمسينات، أو ما قبلها، وماكينة خياطة، اليوم لا توجد، أو توجد بأغلى الأثمان، وسريرها بقوائمه الأربعة، رأيته في التلفاز في الأفلام القديمة، التّي ترجع إلى السبعينيات، ورأيت مرتبتين قديمتين، يبدو عليهما الهلاك، ومخدة فأثار في نفسي الفضول، أن ألقي بجسدي علي هذا السّرير، ولكن في بادئ الأمر شعرت بالخوف، فطلبت ممّن معي أن يفعلوا هذا، ففعلوا، وسألت كل واحدة منهن بماذا شعرتِ؟ الجميع قال: بالرّاحة، قلت: إذًا جاء دوري، واسترخيت حتي كدت أنعس، وأغمضت عيني للتّركيز فيما سأشعر به، مع العلم أن لديّ مشكلة في ظهري؛ بسبب

الجلسة الخاطئة علي المكتب, وكان وقتها به ألم شديد.

فلما استرخيت, شعرت وكأن الألم يُسحب إلى أسفل ثمّ إلى أسفل, حتى تجمّع في قدميّ, ثمّ شعرت بخروجه, فقمت وسألتهن عن هذه الحالة, فقالوا: أنهنّ شعرْن بشبيه هذا.

فلما خرجنا سألت الكابتن محمد عن ما شعرت به, فأخبرني أنّه كان يوجد في جسدي شيء, وببركة هذه السّيدة الكريمة خرج, فحمدّت الله, ولم أشعر بتعب إلى الآن, ولا بألم في ظهري بالرغم من انى عدت أجلس نفس الجلسة, التي كنت أجلسها من قبل, وخرجنا استكملنا السّهرة في السّاحة التي كان ينزلون بها, وهي خلف السّكن المخصّص لي, وجاءت الساعة الواحدة من منتصف الليل, فرجعنا إلى السّكن, وكانت الليلة الأخيرة لي هناك, ولم أذق طعم النّوم ألبته؛ حزنًا على فراق هذا المكان المليء بالرّوحانيات, والتّجليات, والكرامات, وحزنًا على الرّاحة التي كنت أشعر بها, سأفتقدها عندما أخرج من هذا المكان, وإن كنت أريد الإطالة في المكث, ولكن لم أضمن المواصلة إلى خارج القرية, وكان أتوبيس السّاحة سيخرج هذا اليوم فقط, مع أولياء أمور الطلبة الممتحنين في مدرسة الشّيخ الشّاذلي.

صبّحنا يوم الثلاثاء 24 يناير 1 رجب الأصم, خرجت

بحقيبتي، ووضعتها في الأتوبيس، وذهبت أودع الشّيخ الشّاذلي، فوجدته قد أغلق بابه، وكأنه يقول لي: لم يحن وقت الذهاب، بعدها شعرت بالحرج والضّيق، وعدت حيث الأتوبيس، وركبت وعدت إلى حيث توقّفت أمس في القراءة، دامعة العين علي الفراق، حتي تساقط دمعى علي الكلمات، فلم أعد أرى شيئا غير يد توضع علي كتفي، وصوتٍ يهمس في أذني، لنا لقاء آخر، فمسحت أدمعي، وبدأت أرجع إلي العالم الجميل، الذي يأخذني من كلّ مَن وما حولي، وفجأة جاء رئيس المدينة الأستاذ رضا مودعًا لي قائلًا لي: هناك مشاكل في الجبل بين قبيلتي العبدة والبرامجية، ولذا لم نتمكّن من خروجكم من هنا سالمين، ستعودون إلى أن يحين وقت الرّجوع إلى دياركم سالمين، لكنّ الله يسهل لكم الطّريق ببركة سيدنا، وتعودوا سالمين سنأخذ كل الاحتياطات لخروجكم، واستغرب أنه لم ينتابني شعور من الخوف والقلق مثل البقيّة، ولكنّي تبسّمت، وقلت: إن صاحبتنا تجلياته فهذا كرم من الله، وإن متنا سنرجع له، ونبقى بجانبه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ونحشر معه، وهذا كرم من الله، وإن عدنا إلى هنا، فقد أذن لنا بالجلوس في رحابه فترة أخري.

وهذا أيضًا كرم من الله عليّ، نحن في حمى الله، وحمى سيدنا

أبي الحسن، فلما الخوف إذًن؟ سر على بركة الله فالله خير حافظًا، وهو أرحم الرّاحمين، وتحرّك الأتوبيس، ونحن نسمع صوت طلقات النّار من بعيد، ولأنّها في أذني تكاد أن تبطش بنا، فسحبت الستارة علي الشّباك، وقلت: الله خير حافظٍ، اللهمّ اوصلني إلى أهلي سالمة غانمة، ولا تكسر قلوبهم، ولا تصبها بالوجع علىَّ.

وبدأت الرّجوع إلى عالم سيدي أبي الحسن، قال Δ، والاعتصام بالله، ففرّوا إلى الله، واعتصموا بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

ثم قال: بسم الله فررت إلى الله، واعتصمت بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ربّى إني أعوذ بك من عمل الشّيطان، إنه عدو مضل مبين، بسم الله قول باللسان، صدر عن القلب، ففروا إلى الله وصف للملك والأمر.

ثم تقول للشيطان: هذا علم الله فيك، وبالله آمنت، وعليه توكّلت، وأعوذ بالله منك، ولولا ما أمرني ما استعذت منك، ومن أنت حتى أعتصم بالله منك؟

وروى الشّيخ أيضًا: قلت يومًا، وأنا في مغارة في سياحتي: إلهى متى أكون بك عبدًا شكورًا؟ فإذا بقائل يقول لي: إذا لم تر منعمًا

عليه غيرك.

فقلت: إلهي كيف لا أرى منعمًا عليه غيري, وقد أنعمت على الأنبياء, وقد أنعمت على العلماء, وقد أنعمت على الملوك؟ فإذا قائل يقول لي: لولا الأنبياء لما اهتديت... ولولا العلماء لما اقتديت... ولولا الملوك لما أمِنتَ. فالكل نعمة منّي عليك.

هذه السياحيات المتعددة المتكررة, إنّما كانت هجرة إلى الله, وذهابًا إليه وفرارًا نحوه, وما كان من هدف إلا أن يخلو بربه, وأن ينسى كل شيء؛ ليملأ قلبه بالله.

لقد كانت سياحيات للعبادة, وما كانت العبادة العاديّة هي التي يقصدها أبو الحسن بهذه السياحيات, وإنّ الفروض وسننها الرّاتبة من السّهل على أبي الحسن أن يؤديها في الحَضر كما يؤديها الآخرون, وما كان في حاجة إلى هجرة من أجلها, لقد كان قصد أبي الحسن أن يفرغ قلبه؛ ليملأه بالله, ولا بد لهذا من هجرة.

ومن النّاس من يهاجر إلى دنيا يصيبها, أو امرأة ينكحها, فهجرته إلى ما هاجر إليه. أما من كانت هجرته إلى الله ورسوله, فهجرته إلى الله ورسوله.

لقد كانت هجرة أبي الحسن تحنّثًا وبحثًا عن الصّفاء, وامرًا

على الاسترسال مع الله على ما يريد.

لقد كان يريد أن يرتبط بالحق فكان يروض نفسه على ذلك.

كان يروض نفسه على أن يسيطر على نفسه, وعلى شهواته, وعلي إرادته, وعلى مشيئته.

إنه يقول: لن يصل العبد إلى الله وبقى معه شهوة من شهواته, ولا مشيئة من مشيئاته.

وكان يقول: إنْ أردت أن تكون مرتبطًا بالحقّ فتبرأ من نفسك, واخرج من حولك وقوّتك.

لقد كان يريد أن يشهد الله تعالى, أن يشهده متجليا عَلى أنحاء شتّى, والله سبحانه يتجلى للإنسان على قدر صفاته, وأراد أبو الحسن أن يصل في الصّفاء إلى أقصى ما يصل إليه السّالكون.

لقد اعتكف في جبل زغوان, وسافر من قبل ذلك؛ بحثًا عن القطب وسهر الليالي, قائمًا متبتلًا في البوادي والوهاد والأودية.

وكم شهدته المغارات والكهوف قائمًا في جنح الليل, متضرّعًا إلى الله, داعيًا مستغيثًا محاولًا أن يفنى في الله, بحيث يصبح صورة تامة بقدر الإمكان, مما يحب الله تعالى, بحيث يصبح

ربانيّا.

يقول أبو الحسن : أبَى المحققون أنْ يشهدوا غير الله تعالى، لمَا حققهم به من شهود القومية، وإحاطة الديم ومية.

هذه الكلمة الحقّ التي هي تفسير لما يقوله الصوفيّة في وحدة الوجود، كانت الهدف الذى أراد أن يصل إليه أبو الحسن، أراد أن يصل إليه معرفة، وأن يشعر به ذوقًا، وأن يتحقّق به حالًا.

فلمّا تمّ له ذلك من سياحتاه وخلواته، وتحنّثه عاد إلى النّاس مستقرًّا هاديًا مبشرًا بالنّور، والرّحمة، والمعرفة.

يقول صاحب درة الأسرار عن أبى الحسن:

لما قدم المدينة زادها الله تشريفًا وتعظيمًا، وقف على باب الحرم، من أول النّهار إلى نصفه، عريان الرّأس، حافي القدمين، يستأذن على رسول الله ' تسليمًا، فسُئل عن ذلك، فقال: حتى يؤذن لي، فإنّ الله , يقول: {ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ}[1].

فسمع النّداء من داخل الروضة الشّريفة، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام :- يا عَلىُّ ادخل. فوقف تجاه الروضة

(1) سورة الأحزاب:53

الشّريفة, فقال:

السّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته, صلّى الله عليك يا رسول الله, أفضل وأزكى, وأسنى وأعلى صلاة, صلّاها على أحد من أنبيائه, وأصفيائه, أشهد يا رسول الله أنّك بلغّت ما أرسلت به, ونصحت أمّتك, وعبدّت ربّك حتى أتاك اليقين, كنت كما نعتك الله في كتابه: {ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ }[1].

فصلوات الله, وملائكته, وأنبيائه ورسله, وجميع خلقه, من أهل سماوته وأرضه, عليك يا رسول الله.

السّلام عليكما يا صاحبي رسول الله ، يا أبا بكر وياء عمر ورحمة الله وبركاته, فجزاكما الله عن الإسلام وأهله أفضل ما جازى به وزيري نبي الله, في حياته, وعلى حسن خلافته في أمته بعد وفاته, فقد كنتما لمحمد ، وزيري صدق, وخلفتماه بالعدل والإحسان في أمته, بعد وفاته فجزاكما الله عن ذلك مرافقته في الجنّة, وإيانا معكما برحمته, إنّه أرحم الرّاحمين.

اللهمّ إني أشهدك, وأشهد رسلك, وأشهد أبا بكر, وعمر, وأشهد الملائكة النّازلين بهذه الروضة الكريمة, والعاكفين عليها, أنّى أشهد أن لا إله إلا الله, وحده لا شريك به, وأشهد أنّ محمدًا

---

(1) سورة التوبة:128.

عبده ورسوله خاتم النّبيين, وإمام المرسلين, وأشهد أنّ كلّ ما جاء به من أمر ونهى, عمّا كان أو ما هو كائن فهو صدق وحقّ, لا كذب فيه ولا امتراء , وأنّى مقرّ لك بجنايتي ومعصيتي في الخطرة والفكرة, والإرادة والفعلة, وما استأثرت به علىَّ, إذا شئت أخذت, وإذا شئت عفوت عنه, مما هو متضمن للكفران, والنّفاق, أو البدعة, أو الضلالة, أو المعصية, أو سوء الأدب معك, ومع رسولك, وأنبيائك, وأوليائك من الملائكة والإنس والجن, وما خصصت به من شيء في ملكك, فقد ظلمت نفسى بجميع ذلك, فامنن علىّ بالذي مننت به على أوليائك, فإنك أنت الله الملك المنان الكريم, الغفور الرحيم.

يقول ابن عطاء الله: ونشأ على يد الشّيخ ¢, جماعة كثيرة, منهم: من أقام بالمغرب كأبي الحسن الصّقلي, وكان من أكابر الصّديقين, وعبد الله الحبيبي, وكان من أكابر الأولياء.

ومنهم: من تبعه وهاجر معه إلى مصر, ومنهم: من صحبه بالدّيار المصريّة, وكلّهم لهم علوم وأسرار, وأصحاب أخذوا عنه.

ثم أعود فأقول عن قصتي : وصلنا إلي مرسى علم, وتوالت الاتصالات عليّ, للاطمئنان عليّ, وأخبرت أهلي أني بخير, وفي كامل صحّتي والحمد لله, لم يصبنا سوء أو مكروه, ومكثت عند

الجميلة ملك محمود حتي السّاعة السّادسة؛ لأتخذ الأتوبيس المتوجّه إلى القاهرة, بمكان قريب من بيتهم, فأحسنوا إلى وأكرموني, ودعتهم في تمام السّاعة السّادسة والنّصف, وذهبت لأصعد الأتوبيس ولكن لم يكن لدى وقت لأستكمل القراءة عن أبى الحسن الشّاذلي.

ولكن أخذت الليل كلّه ذِكر, ولم يتركني أحد ممن كانوا في صحبتي في قرية سيدنا الشّيخ الشّاذلي, حتى وصلت إلى بيتي, واطمأنّوا علي وصلت إلى بيتي في تمام السّاعة الخامسة والثّلث صباح يوم الأربعاء 22 يناير- 2 رجب الأصم.

نمت مثل القتيل من عناء السّفر, وعندما استيقظت بدأت أحكى لأهلي عن الرّحلة وجمالها, وبدأت أكتب فلمْ أتمكن في بداية الأمر أن أتخلى عن الكتابة, ولكن قررت أن أكتب, ويكون ثالث كتبي, فقد أصابتني دعوة المشيرة, عندما قدمت السّيدة زينب بنت الإمام على كرم الله وجهه, وبنت السّيدة فاطمة البتول, أم أبيها محمد عليها السلام, وعلى جدّها السّلام, ورضّى قلب أمها علينا.

جاءت مصر, فوجدت أهلها حافلين بها, فقالت "يا أهل مصر، نصرتمونا نصركم الله، وآويتمونا آواكم الله، وأعنتمونا

أعانكم الله، وجعل لكم من كل مصيبة فرجًا, ومن كل ضيق مخرجًا "

إنّ كلمة الإسلام التي وضعت اسما للدين عند الله الدّين الذى لا يقيّده زمان, ولا يحدّه مكان, تتضمن في مفهومها الكريم المعاني الأخلاقيّة السامية, فإنّها تعنى: إسلام الوجه لله, وتتسع لأقصى ما يطلبه الذّاهب المجدّ في السّير إلى الله.

لقد سئل رسول الله ‘ في حديث صحيح من مرويات الإمام مسلم عن الإسلام, فقال صلوات الله وسلامه عليه: "أن يسلم لله قلبك, وأن يسلم المسلمون من لسانك ويديك "

وإسلام القلب لله إسلامًا كليّا عَلىُّ قدر الاستطاعة, التي تناسب كل فرد, والتي تختلف في الأفراد؛ لاختلاف طبائعهم, إنّما هو هدف الصّوفي.

ولقد كان إسلام القلب لله هدف أبى الحسن الشاذلي, هدفه لنفسه, وهدفه للآخرين, وهو حينما وصل بمجاهدات إلى إسلام قلبه لمولاه, حاول ما استطاع أن يصل بأتباعه إلى ذلك, فأخذ يشير بكل ما يؤدّى إلى هذا المعنى.

والجوّ الذى يعيش فيه أبو الحسن, هو كما يأتي:

جوّ عبوديّة, وهل العبوديّة إلا إسلام الوجه لله؟

وتوكّل: وهل التوكّل إلا التّعبير عن إسلام الوجه لله؟

وإخلاص: وماذا يكون إسلام الوجه لله إن لم يبن على الإخلاص، وإن لم يثمر الإخلاص؟

ومحبّة: وهل يتأتى إسلام الوجه لله إلا عن المحبّة له تعالى؟

وإسلام الوجه لله يسبقه ويرافقه الذّكر والعبادة.

أراد أبو الحسن أن يسير بحسب استعداده للعروج، وهو يصف القمّة، وهم: أهل الله وخاصته، بهذه الكلمات الجميلة : "أما أهل الله وخاصته فهم: قوم جذبهم عن الشرّ وأصوله، واستعملهم في الخير وفروعه، وحبّب إليهم الخلوات، وفتح لهم سبيل المناجاة، فتعرّف إليهم فعرفوه، وتحبب إليهم فأحبّوه، وهداهم السّبيل إليه فسلكوه، فهم به وله، لا يدعهم لغيره، ولا يحجبون عنه بل هم محجوبون به عن غيره، لا يعرفون سواه، ولا يحبون إلا إياه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب ".

وليس كل النّاس يستطيع ذلك، ولا يطمع أبو الحسن أن يصل بهم جميعًا إلى هذه، ولكن إذا كانت طبيعة الأمور تأتى التسويّة في الطّبائع، فإنّها لا تأبى إشاعة جو من النّور، والعبوديّة، والإخلاص يقبس منه كلٌ بحسب استعداده.

يقول أبو الحسن: التّصوّف تدريب النّفس على العبوديّة, وردّها لأحكام الربوبيّة.

ويقول ¬: الصّوفي, فيه أربعة أوصاف:

1. التّخلق بأخلاق الله ¸ .
2. المجاورة لأوامر الله.
3. ترك الانتصار للنّفس حياء من الله.
4. ملازمة البساط بصدق البقاء مع الله.

وما من شك في أن هذه الكلمات عن التّصوّف, وبعبارة أدقّ عن الطّريق الصّوفي, تتكامل مع ما يتحدث به أبو الحسن عن الصّديقين, وقربهم من الحق سبحانه, ومشاهداتهم في الملأ الأعلى.

يقول الله تعالى: {ڎ ڎ ڈ ڈ}(1) .

وهو سبحانه أغنى الشّركاء عن الشّرك, ومن أجل ذلك لا بد من الإخلاص, وهو في ذروته: " نور من نور الله, استودعه قلب عبده المؤمن, فقطعه به عن غيره, فذلك هو الإخلاص الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه, ولا شيطان فيفسده, ولا هوى فيميله".

---

(1) سورة الزمر:3

يحكى جبريل ؑ عن رب العزّة لرسول الله ؐ يقول: "الإخلاص سرّ من سرّى استودعته قلب من أحببت من عبادي"

يتحدث أبو الحسن عن صفات المخلصين, فيقول: رجال جبلهم على حسن عبوديّته, وأخلصهم لإخلاص توحيد ربوبيته, واتباع شريعته فيما منع, أسرارهم بأنوار حضرته, وأمدّ أرواحهم بمعاني المعارف, وخصائص عنايته وأجالَ عقولهم في عظمته, وزكى نفوسهم فأحرزها, وأخرجها من ظلمة الجهل, وهداهم بنجوم العلم, وشمس معرفته, وأيّد عقائدهم ببرهان كتابه, وسنّته.

ومحا عزائمهم بتحقيق غلبة مشيئته, وطوى إرادتهم بتيقن, وقفها على إرادته, وزينهم بزينة الزّهد, وحلية التوكّل, وشرف الورع, ونور العلم, وضياء المعرفة, وألهمهم لفضله وطَوله, وتولاهم فأغناهم به عن غيره.

وجعل منهم مفاتيح لقلوب الورى, وينابيع الحكمة الكبرى, يتلقونها شرعًا, ويلقونها لأهلها سرًا وجهرًا, ومنهم من سترته الأقدار, وحجبته عن الأغيار؛ لينفرد بالتّمكين في حقيقة الأسرار, تعرف كلًا بسيماهم, باطنهم مع الحقّ, وظاهرهم مع الخلق, فهم همْ ولا هم, في الوجود بوصف الغناء ظاهرين,

صفوا وافترقوا في سيرهم سننًا, ظاهرهم الفقر, وباطنهم الغنى يتخلقون بأخلاق نبيهم ؐ, كما قال العلى الأعلى: {گ گ گ }[(1)] .

أَفَتُرَاه أغناه بالمال؟ كلا. وقد شدّ الحجّر على فؤاده, وأطعم الجيش من صاع, وخرج من مكة على قدميه ؐ, وركب فوق البراق, وعرج به إلى السّماء العلا, إلى سدرة المنتهى, ورأى ما رأى, ما كذب الفؤاد ما رأى.

فانظر إلى حال الغنى في الوصفين. ويشهد شرف أوصافه في الحالتين، فإن قلت: بشر؟ قلت: نعم لا كالبشر، كما تقول في الياقوت: حجر لا كالحجر. وفى العبادة نبيٌّ ورسول يدعو بالحقّ إلى الحقّ, وفي العباد نبي ورسول, يدعو بالحقّ إلي الحقّ. فأعطى الأولياء منه ميراثا من النبيين بين الخلق. إذ هم قوم أخذوا في الأسي بجدّ وإتيان. واعتقدوا قول: كان اللّٰه ولا شيء معه، وهو الآن على ما هو عليه كائن، وقاموا في مقام التّوحيد، على قدم التّجريد من حظوظ النّفس وملاحظة الحظوظ، واقتداء بالسّلف ! .

هذا قصد القوم، وأصل في الأخلاق, والتّخصيص فيما لو نظرت إلى حقيقة ذلّهم, وافتقارهم الذى هو عينُ العزّ والغنى

---

(1) سورة الضحى:8

بمولاهم، أشهد تحقق حالهم إلا على وليّ في نهايته، أو صديق ولو في بدايته؛ لأن غايات الأولياء بداية الصديقين.

فخذ السرّ جهرا إليك، واحبس عليه بكلتا يديك, ولا تكترث بحسّادك, فقد قال لنبيه ؑ: {ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ }[(1)], حتى قال له: {ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ }[(2)]. ولا تسألني أن أقطعه عليك, فكأنّه , يقول له: سلني أنْ أكفيك شرّ حسّادك, ولا تسألني أنْ أقطعهم عنك، فإنّ الحسّاد مع النّعيم. ولا بدّ من نعمة عليك, فتأسّ يا مسكين إن أردت الشفا، فلعلّه أن يقع بكشف خطاب, ولا تطمع أن يقع مع الحجاب.

وأول ما يبدأ به المريد السّالك إلى الله تعالى, الذى يريد إسلام وجهه إليه, إنّما هو التّوبة, وتبدأ التّوبة بالاستغفار, وحقيقة الاستغفار ألا يكون لك مع غير الله قرار, وهو بهذا الوضع أمان للمستغفر من عذاب الله تعالى.

ولا بد في كل عمل يأتيه الإنسان, بل كل أمر يتركه من النيّة, ومن الإخلاص في النيّة, وذلك لكى يترتب الأجر والثواب من الله على العمل, ويقول ؐ "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا

---

(1) سورة الفلق:1

(2) سورة الفلق:5

نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ"(1).

والنيّة والقصد والعزم, والإرادة والمشيئة كل ذلك بمعنى واحد, أو يجب أن يكون بمعنى واحد.

وحقيقة النيّة: عدم غير المنوي عند الدخول فيه, وكمالها: استصحاب ذلك على الكمال, ووقت النيّة: عند افتتاح العمل, وكيفيتها: ارتباط القلب مع الجوارح, يقول ‘: "من صلحت نيته صلح سائر عمله" رواه الطبراني والمنذري في التّرغيب والتّرهيب.

فحسن النيّة فيما بينك وبين الله: بتوجيه القلب بالتعظيم لله, والتعظيم لأمر الله, والتعظيم لما به أمر.

وفيما بينك وبين العباد: بتوجيه النّفوس بالنّصيحة لهم, والقيام بالحقوق, وترك الحظوظ, ونبذ العوارض مع الصّبر لله, والتوكّل على الله.

ومهما يكن من شيء فإنّه بمقدار الإخلاص في النيّة؛ يكون الثّواب ويكون التّرقي.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ρ، حديث رقم:1.

والطّريق القصد إلى الله تعالى أربعة أشياء، من حاجزها فهو من الصّديقين المحقّقين، ومن حاز منها ثلاثة؛ فهو من الأولياء المقرّبين، ومن حاز منها اثنين فهو من الشّهداء الموقنين، ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصّالحين.

1. الذّكر وبساطة العمل الصّالح، وثمرته: النّور.
2. التّفكير وبساطة الصّبر، وثمرته: العلم.
3. الفقر وبساطة الشّكر، وثمرته: المزيد منه.
4. الحبّ وبساطة بغض الدّنيا وأهلها، وثمرته: الوصل بالمحبوب.

وأخذًا في هذا الطّريق القصد إلى الله، وتدعيمًا للتّوبة، وتثبيتًا للإخلاص، يحسن أن يخلو الإنسان، وربّه فترة من الزّمن، هي فترة العزلة، أو فترة الخلوة، أو فترة الكهف، أو فترة الغار، يلازم فيها: " الذّكر، والمراقبة، والتّوبة، والاستغفار "

ومهما خالط سرّه شيء من ذنب، أو عيب، أو نظر إلى عمل صالح، أو حال جميل، فيجب عليه المبادرة إلى التّوبة، والاستغفار من الجميع، أمّا من الذّنب فواجب عليه شرعًا، وأمّا من غيره فاعتبارًا باستغفار النبي ﷺ، تسليمًا بعد البشارة، واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا من معصوم لم

يقترف ذنبًا قط, فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب أو عيب في وقت من الأوقات؟

أما ثمرة العزلة فهي: الظفر بمواهب المنّة, وهى أربعة : كشف الغطاء, وتنزل الرّحمة, وتحقيق المحبّة, ولسان الصّدق في الكلمة.

ولابد للمريد من الجهد, لا بد له من جهد العدو.

ومن أراد ألا يكون للشيطان عليه سبيل, فليصحح الإيمان, والتوكّل, والعبوديّة لله, وليستعد به سبحانه.

ولعلك تسأل عن كيفيّة تصحيح الإيمان فاعلم أنه :

بالشّكر على النّعماء, والصّبر على البلاء, والرّضا بالقضاء.

أمّا صحّة التوكّل فإنّها : بهجران النّفس, ونسيان الخلق.

أما تصحيح العبوديّة فإنّه: بوضوح الفكرة عن حقيقة الصّفات الإنسانيّة, وحقيقتها: أنها فقر بالنسبة إلى الله تعالى, وعجز بالنسبة إلى قوته, وذلّ في مقابلة عزّه سبحانه, ومهما يكن من شيء فإنّ مخازي الشّيطان أربعة:

1 - إمّا أن تجلس متفكّرًا فيما يقربك إلى الله؛ فتأتيه.

2- أو متفكّرًا فيما يبعدك عنه؛ فتجتنبه.

3- وإمّا أن تجلس متفكّرًا فيما سبق من حسن عملك؛ فتشكر وتستغفر

4- وإمّا أنْ تجلس متفكّرًا فيما سبق من ذنوبك؛ فتستغفر, وتشكر.

والحديث عن الشّيطان يستتبع الحديث عن النّفس, ومراكز النّفس أربعة :

مركز للشهوة في المخالفات.

ومركز للشهوة في الطّاعات.

ومركز في الميل إلى الرّاحات.

ومركز في العجز عن أداء المفروضات.

وإذا أردت جهاد النّفس: فاحكم عليها بالعلم في كلّ حركة, واضربها بالخوف عند كلّ خطوة, واسجنها في قبضة الله أينما كنت, واشك عجزك إلى الله كلما غفلت, فهي التي لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها, فإن سخرت لكم في قضيّة, فجدير أن تذكروا نعمة الله عليكم وتقولوا : { ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ }(1) .

ومهما يكن من شيء فإنّ موت النّفس يكون: بالعلم والمعرفة

---

(1) سورة الزخرف:13

, والاقتداء بالكتاب والسنّة, وعلاج من انقطع عن المعاملات, ولم يتحقق بحقائق المشاهدات أربعة:

طرح النّفس علي الله طرحًا, لا يصحبه الحول والقوة, والتّسليم لأمر الله تسليمًا لا يصحبه الاختيار مع الله, هذان علاجان باطنان.

وذم الجوارح عن المخالفات, والقيام بحقوق الواجبات, وهذان علاجان ظاهران.

ثم يقعد على بساط الذّكر بالانقطاع إلى الله, عن كل شيء سواه.

وحينما يذكر الشّيطان وتذكر النّفس؛ تذكر الدّنيا.

والدّنيا التي لا حساب عليها في الآجل, ولا حجاب معها في العاجل هي التي لا إرادة لصاحبها فيها, قبل وجودها, ولا معها, لا فرح لها عند وجودها, ولا أسف عليها عند فقدها.

والحرّ الكريم من يأخذها منه على المواجهة, ويدعها به على المواجهة, لا أثر للأغيار على قلبه, هذا ما يقوله الشّاذلي عن الدّنيا, وكل ما تريده الصوفيّة إنّما هو الابتعاد عن أن يكون الإنسان عبدًا للدنيا, ولا مانع عندهم أن يكون الإنسان من أصحاب الملايين, إذا لم يكن قلبه متعلقًا بالدّنيا, في إقبالٍ أو

إدبارٍ, ووجهتهم تحقيق الآية الكريمة: {ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ}[1].

إن الدّنيا الممقوتة عند الصوفيّة إنّما هي الدّنيا التي تشغل وتلهى, وتستعبد, إنها الشّهوات والنّزاعات والأهواء, إنها اللعب واللهو والغفلة عن الله.

أمّا امتلاك المال, واقتناء العقار, والثّراء عريضًا أو غير عريض فلا مانع منه عند الصوفيّة, إذا خلا من المضارّ.

يقوب أبو الحسن ضارعًا إلى الله داعيًا: اللهمّ وسّع أرزاقنا, وكثّر أضيافنا, واجعلنا من المتّقين في سبيل مرضاتك, قصدًا بلا إسراف ولا تقتير, ووفقنا لذلك واهدنا بهدايتك, وأخلصنا بإخلاصك عن إخلاصنا, وقنا من الشحّ والبخل, والمنّ ومن التّهمة في الرزق.

وقال رضى الله عنه : اعرف الله, ثم استرزاقه من حيث شئت, غير مكبّ على حرام, ولا راغب في حلال.

ومن الدعاء الجميل لأبى الحسن الدعاء: الذي يستنتج منه الإنسان الرّأي الحقيقي للصوفيّة, فيما يتعلق بالدّنيا قوله :

يا الله يا ولِىُ, يا نصيرُ, يا غنىُ, يا حميدُ, أعوذ بك من دنيا لا

(1) سورة الحديد:23.

يكون فيها نصيب لوجهك, ومن عمل آخرة يكون فيها حظّ لغيرك.

وأعوذ بك من كلّ حركة تعرّى من الاقتداء بسنّة رسولك, ومن كلّ ضرورة لا تؤدّى إلى حقيقة معرفتك.

واعكف قلبي في حضرتك, وأغنني برعايتك, إنّك على كل شيء قدير.

وإذا أكرم الله عبدًا في حركاته, وسكناته, نصب له العبوديّة لله, وستر عنه حظوظ نفسه, وجعله يتقلب في عبوديّته, والحظوظ عنه مستورة, مع جريان ما قدّر له منها, ولا يتفلت إليها كأنّه في معزل مشغول عنها.

وإذا أهان الله عبدًا في حركاته, وسكناته, نصب له حظوظ نفسه, وستر عنه عبوديّته, فهو يتقلب في شهواته, وعبوديّته لله عنه بمعزل, وإن كان يجرى منها شيء في الظاهر.

والعبوديّة هي: امتثال الأمر, واجتناب النّهى, ورفض الشّهوات والمشيئات, فمن وصل بتطهير قلبه عن الشّيطان, والنّفس, والدّنيا وبكثرة الذّكر إلى العبوديّة؛ فقد ظفر بخير عميم.

والعبد الذي أكرمه الله بالعبوديّة, يؤدّى كل طاعة في وقتها,

ذلك أنّ لكل وقت سهمًا في العبوديّة، يقتضه الحق منك بحكم الربوبيّة، فلا تؤخر طاعة وقتٍ لوقت، فتعاقب بفوتها، أو بفوت غيرها.

وفائدة الطّاعات والمحافظة عليها لا تنكر، ولقد قيل لأبى الحسن مرة: ما الذى استفدت من طاعتي؟ وما الذي استفدت من معصيتي؟

فقال: استفدت من الطّاعة العلم الزّائد، والنّور النّافذ، والمحبّة.

واستفدت من المعصية: الغمّ والحزن، والخوف والرّجاء.

وعليكم بالمطهّرات الخمس في الأقوال، والمطهّرات الخمس في الأفعال، والتّبري من الحول والقوّة في جميع الأحوال، وغُصْ بعقلك إلى المعاني القائمة بالقلب. واخرج عنها وعنه إلى الربّ واحفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، واعبد الله بها، وكن من الشّاكرين.

والمطهّرات الخمس في الأقوال : سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

والمطهّرات الخمس في الأفعال: الصّلوات الخمس، والتّبري من الحول والقوة، وهو قولك: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإيمانك

بها.

ومن علم اليقين بالله وبما لك عند الله: أن تتعاطى بين الخلق ما لا تصغر به عند الحقّ, وإنْ صغرت به في أعين الخلق بلا اعتراض من الشرّع, ولا منازعة من الطبع, بل من عين اليقين نسيان الخلق عند هجوم الشدائد, وتتابع الفوائد بسواطع الشّواهد.

بل من حقّ اليقين الغرق في الشيء كأنّك نفس الشيء, كمن اضطرّ إلى رؤية البحر, فركبه وانكسرت سفينته, فتلاطمت عليه الأمواج, فمنهم: بعد من يفنى, ويذهب مع الذّاهبين, وينقل إلى درجات عليين.

ومنهم: من يحيا ويبقى مع الباقين, لا حظّ للمقتدى فيه, بل هو مستور عن الخلق أجمعين.

ومنهم: من يحيا ويبقى مع الباقين, لا حظّ للمقتدى فيه, بل هو في الوصفين قدوة للثّقلين.

ومنهم: الإمام الأكبر, الفرد القطب, الغوث الجامع, المختصّ بالأسماء والصّفات, والأنوار والأخلاق, وما لا يسع أن يسمعه سامع.

ومن دونهم ممن لا درجة له مع الأولياء, والأتقياء, والعبّاد,

والزّهاد ومن أهل النّظر بالدّليل والبرهان, ولم يطّلع بعد على الكشف والعيان.

ومن دونهم أهل الوسائل بالأعمال والأحوال, وأهل التّخليط في الأقوال والأفعال.

وعلى المريد السّالك الأخذ في الذّكر, "وعليك أيّها المريد بالذّكر الموجب للأمن من عذاب الله في الدّنيا والآخرة, وتمسّك به, وداوم عليه "

وينصح أبو الحسن بالإكثار من صيغة الذّكر, وهى: الحمد لله، واستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويقول Δ: اجمع بين هذه الأذكار الثّلاثة, في عموم الأوقات, وداوم عليها؛ تجد بركتها إن شاء الله.

فإذْ ما فرّغ الإنسان لسانه للذّكر, وقلبه للشّكر, وبدنه لمتابعة الأمر؛ فهو من الصّالحين.

ويرى الصوفيّة أنّهم مهما أشادوا بالذّكر, وتحدّثوا عن فوائده, ومزاياه, فإنّهم لا يوفّونه حقّه, إنّهم يرون أنّه بعد التّوبة والإخلاص, الباب إلى التّرقي في الدّرجات, وقطع المنازل, وطي المسافات إلى المعارج والقربات, وإلى الفتح والإلهامات.

يقول الإمام القشيري:

الذّكر ركن قوى، في طريق الوصول إلى الحقّ ، بل هو العمدّة في طريق القوم، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذّكر.

ومن أجل ذلك كان اهتمام أبى الحسن بالذّكر كبيرًا، وما روى عنه في ذلك كثير.

فإذا كان الذّكر كانت الأحوال وكانت المقامات، فمن ذلك:

الورع: والورع نعم الطّريق، لمن عجّل ميراثه وأجّل ثوابه.

فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله، على البيّنة الواضحة، والبصيرة الفائقة.

فهم في العموم أوقاتهم، وسائر أحوالهم، لا يدبّرون، ولا يختارون، ولا يريدون، ولا يتفكّرون، ولا ينظرون، ولا ينطقون، ولا يبطشون، ولا يمشون، ولا يتحركون إلا بالله ولله، من حيث يعلمون هجم عليهم العلم، على حقيقة الأمر فهم مجموعون في عين الجمع، لا يتفرقون فيما هو أعلى، ولا فيما هو أدنى، وأمّا أدنى الأدنى فالله يورعهم عنه ثوابًا لورعهم، مع الحفظ لمتنازلات الشرّع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث؛ فهو محجوب بدنيا، أو مصروف بدعوى، وميراثه المتعزز لخلقه، والاستكبار على مثله، والدّلالة على الله بعلمه، فهذا هو

الخسران المبين, والعياذ بالله العظيم من ذلك.

والأكياس يتورّعون عن هذا الورع, ويستعيذون بالله منه, ومن لم يزد بعلمه وعمله افتقارًا لربه, وتواضعًا لخلقه؛ فهو هالك.

فسبحان من قطع كثيرًا من الصّالحين بصلاحهم عن مصلحتهم, كما قطع كثيرًا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم, فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

وحقيقة الزّهد: فراغ القلب ممّا سوى الربّ تبارك وتعالى.

والتوكّل: صرف القلب عن كل شيء, سوى الله.

وحقيقته: نسيان كلّ شيء سواه, وسره: وجود الحقّ دون كلّ شيء تلقاه, وسرّ سرّه ملك وتمليك, لما يحبه ويرضها.

ولا يصحّ التوكّل إلا لمتقٍ, ولا تتمّ التّقوى إلا لمتوكّل.

ومن ذلك الرّضا : الرّضا عن الله, وعن قضاء الله, لا عن النّفس.

يقول أبو الحسن : ألق بنفسك على باب الرّضا, وانخلع عن عزائمك وإرادتك.

والذي نختم به الطّريق: إنّما هو المحبّة, والمحبّة والرّضا,

والزّهد, والتوكّل, هي بساط الكرامة عند أبي الحسن.

يقول رضى الله عنه : بساط الكرامة أربع :

1. حبّ يشغلك عن حبّ غيره.
2. ورضا يتصل به حبّك بحبّه.
3. وزهد يحققنك بزهد في بريّته.
4. وتوكّل عليه يكشف لك عن حقيقة قدرته.

ولأبي الحسن كلام جميل عن المحبّة.

قال الشّيخ أبو الحسن: من أحبّ الله, وأحبّ لله؛ فقد تمّت ولايته بالحبّ.

والمحبّ على الحقيقة: من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه, ولا مشيئة له غير مشيئته, فإن من ثبتت ولايته لله لا يكره الموت, ويعلم ذلك من قوله تعالى: ﴿ۀ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮭ ﮮ ﮯ﴾[1].

فإذن الولي على الحقيقة, لا يكره الموت إن عرض عليه, وقد أحبّ الله من لا محبوب له سواه, وأحبّ له من لا يحبّ شيئًا لهواه, وأحبّ لقاءه من ذاق أنس مولاه.

---

(1) سورة الجمعة:6.

ويتمحص لك الحب له في عشرة, فاعتبرها فيما وراءها، في الرّسول ﷺ, والصِّدّيق, والفاروق, والصّحابة, والتّابعين, والأولياء, والعلماء الهداة إلى الله تعالى, والشّهداء, والصّالحين, والمؤمنين.

فإذن افترق الأمر بعد الإيمان إلى عشرة أشياء, إلى: السنّة, والبدعة , والهداية, والضّلالة, والطّاعة, والمعصية, والعدل, والجور, والحق, والباطل.

فإذا ميّزت, وأحببت وأبغضت, فأحبّ له, وابغض له, ولستَ تبالى بأيهما كنت, وقد يجتمع لك الوصفان في شخص واحد, ويجب عليك القيام بحقهما جميعًا, فإذا قد بان لك الحبّ في العشرة الأولى, فانظر هل ترى للهوى هناك أثرًا؟ فكذلك فاعتبر حبّ من حضر من إخوتك الصّادقين, والمشايخ الصّالحين, والعلماء المهتدين, وسائر من حضر, ومن لم يحضر, ممن غاب عنك, أو مات.

فإن وجدّت قلبك لا متعلّق له بمن حضر, كما لا متعلّق له بمن غاب عنك, أو مات؛ فقد خلص الحبّ من الهوى, وثبت الحبّ لله, وإن وجدت شيئًا يتعلّق به فيمن تحبّ, أو فيما تحبّ, فارجع إلى العلم, وأتقن النّظر في الأقسام الخمسة, من الواجب, والمندوب إليه, والمكروه, والمحظور, والمباح.

قال الشّيخ Δ: المحبّة آخذة من الله لقلب عبده, عن كل شيء سواه, فترى النّفس مائلة لطاعته, والعقل متحصّنًا بمعرفته, والرّوح مأخوذة في حضرته, والسرّ مغمورًا في مشاهدته, والعبد يستزيد فيزاد, ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته, فيكسى حلل التّقريب, على بساط القربة, ويمسّ أبكرا الحقائق, وثيّبات العلوم.

فمن أجل ذلك قالوا: أولياء الله عرائس, ولا يرى العرائسَ المجرمون.

قال له القائل: قد علمت الحبّ!

فما شراب الحبّ؟ وما كأس الحبّ؟ ومن السّاقي؟ وما الذّوق؟ وما الشرّاب؟ وما الري؟ وما السُّكر؟ وما الصّحو؟.

قال: الشرّاب: هو النّور السّاطع عن جمال المحبوب.

والكأس : هو اللّطف الموصول ذلك إلى أفواه القلوب.

والسّاقي: هو المتولي الأكبر المخصوصين من أوليائه, والصّالحين من عباده, وهو الله العالم بالمقادير, ومصالح أحبائه.

فمن كشف له عن ذلك الجمال, وحظى منه بشيء, نفسًا أو

نفسين, ثمّ أرخى عليه الحجّاب؛ فهم الذّائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين؛ فهو الشّارب حقًا.

ومن توالى عليه الأمر, ودام له الشّرب, حتى امتلأت عروقه ومفاصله, من أنوار الله المخزونة, فذلك هو الرِّي.

وربّما غاب عن المحسوس والمعقول, فلا يدرى ما يقال, ولا ما يقول, فذلك هو السُّكر.

وقد تدور عليهم الكؤوس, وتختلف لديهم الحالات, فيردّون إلى الذّكر, والطّاعات, ولا يحجبون عن الصّفات ,مع تزاحم المقدورات, فذلك وقت صحوهم, واتّساع نظرهم, ومزيد عملهم.

فهم بنجوم العلم وقمر التّوحيد, يهتدون في ليلهم, وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم, } ڇ ڇ ڇڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ {[1].

هذه المقامات, من: ورع, وزهد, وتوكّل, ورضا, ومحبّة, وغيرها, إنّما هي ثمرة الذّكر, المؤسّس على الإخلاص, والتّوبة, والعبوديّة, والاستقامة, ولن يترقى المريد إلا بالرّكن الأساسِ في طريق القوم, وهو الذّكر.

---

(1) سورة المجادلة:22.

وينتج الذّكر المعارج والمرائي، وهى نتائج الطّريق الصّوفي والسّلوك إلى الله.

يقول أبو الحسن الشّاذلي: رأيت كأنني مع النّبيين والصّديقين، فأردت الكون معهم، ثم قلت: اللهمّ اسلك بي سبيلهم، مع العافية ممّا ابتليتهم، فإنّهم أقوى، ونحن أضعف منهم.

فقيل لي: وما قدّرت من شيء، فأيّدنا كما أيّدتهم

ورأيت كأنّى في المحل الأعلى فقلت : إلهى أي الأحوال أحب إليك؟ وأي الأقوال أصدق لديك؟ وأي الأعمال أذل على محبتك؟ فوفقني واهدني.

فقيل لي: أحب الأحوال إليه: الرّضا بالمشاهدة، وأصدق الأقوال لديه: قول لا إله إلا الله، على النّظافة، وأدلّ الأعمال على محبّته: بغض الدّنيا، واليأس من أهلها، مع الموافقة.

ورأيت كأنّ واقف بين يدى ربى، فقال : لا تأمن مكرى في شيء وإنْ أمنتك، فإنّ علمي لا يحيط به محيط.

ورأيت كأنّى أطوف بالكعبة، ظانّا من نفسى الإخلاص، وأنا أفتش عليه في سرى، فإذا بالنّداء علىّ :

كم تدندن مع من يدندن، وأنا السّميع القريب، العليم

الخبير, وتعريفي يغنيك عن علم الأولين والآخرين, ما خلا علم الرّسول وعلم النّبيين.

قال أبو الحسن Δ: قلت علي مصيبة نزلت ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ اللهمّ أجرني في مصيبتي, وأعقبني خيرًا منها, فألقى في سرّى أنْ أقول : فاغفر لي بسببها, وما كان من توابعها, وما اتصل بها, وما هو محشوّ بها, وكلّ شيء كان قبلها, وما يكون بعدها, فقلتها؛ فهانت علىّ, فلو أنّ الدّنيا كلّها كانت لي في ذلك, وأصبت فيها؛ لهانت على, ولكان ما وجدت من برد الرّضا والتّسليم, أحبّ إلى من ذلك كلّه.

وكتب أبو الحسن إلى الشّيخ أبى يحيى:

أما بعد فإني منذ اثنتي عشر سنة, أغدو وأروح فيما هيأ لي من سفر الرّوح, على عساكر أولياء الله, فما مررت بك إلا وجدتك روحًا طيّبة, تعقلها العقول, وتألفها النّفوس, ويستريح بها السرّ, ويذعن لها الأمر, ويجتمع إليها كلّ مفترّق.

يقول أبو الحسن: قرأت ليلة في وردى, قوله تعالى: {ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ}[1]

فرأيت أبا بكر الصّديق رضى الله عنه في المنام فقال لي :

---

(1) سورة الرحمن:26-27.

صِل من يبقى، واهجر من يفنى، تجلّ وتكرّم، تجلّ عن الفناء، وتكرمّ بالبقاء

ويقول: كان لي صاحب، وكان كثيرًا ما يأتيني بالتّوحيد، فرأيت في النّوم، كأنى أقول له: يا عبد الله، إن أردت التي لا لوم فيها؛ فليكن الفرق على لسانك موجودًا، والجمع في سرّك مشهودًا

ورأيت رسول الله ‘ فقال لي: قل لفلان ابن فلان يقرأ هذه الكلمات، فمن قالهن؛ تنصبّ عليه الرّحمة كالمطر:

الحمد لله الذى بُدئ منه الحمد، وإليه يعود كل شيء، كذلك لا إله إلا الله، اللهمّ اغفر لي شركي وكفرى، وتقصيري، واغفر للمؤمنين والمؤمنات.

يقول أبو الحسن: " استأذنني بعض الفقراء للحضور والسّماع، فهممت بذلك، فرأيت أستاذي τ، وفي يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم، وحديث رسول الله ρ، وفي يده اليسرى أوراق، فيها شعر مريز وهو يقول لي كالمنهر:

"أتعدلون عن العلوم الزّكية، إلى علوم ذي الأهواء الرديّة، فمن أكثر من هذا؛ فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزون بها قلوب ذوي الغفلة والنّسيان، وأهل الضّلالة والعميان، ولا إرادة لهم في عمل الخير، واكتساب

الغفران، يتمايلون عند سماعها تمايل الصّبيان، لئن لم ينته الظّالم ليقلبنّ الله أرضه سماءً وسماءه أرضًا ".

قال: فأخذني منه حال بوجد, وأنا أقول له: نعم يا أستاذي، إلا أن النّفس أرضيّة, والرّوح سماويّة، فقال لي: " نعم يا علي، إذا كانت الرّوح بأمطار العلوم دائرة، والنّفس بالأعمال الصالحة ثابتة, فقد حصل الخير كلّه، وإذا كانت النّفس غالبة والرّوح مغلوبة، فقد حصل القحط والجدب، وانقلب الأمر, وجاء الشرُّ كلّه، فعليك بكتاب الله الهادي، وبكلام رسوله الشّافي، فلن تزال بخير ما آثرتهما، وقد أصاب الشرُّ من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا سمعوا الحق أقبلوا عليه: { ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ}[1]

وقال رضى الله عنه : خطر ببالي يومًا, أنى لست بشيء, ولا عندي من المقامات والأحوال شيء, فغمست في بيت مسك, فكنت فيه غريقًا, فلدوام غرقتي فيه؛ لم أجد له تلك الرّائحة فقيل لي: علامة المزيد: فقدان المزيد لعظيم المزيد.

وقال أيضًا قيل لي: إن أردت رضائي, فمن اسمى, ومنّى ,ولا من اسمك, ومنك.

---

(1) سورة الشورى:23

قلت: وكيف ذلك؟ قال: سبقت أسمائي عطائي, وأسمائي من صفاتي, وصفاتي قائمة بذاتي, ولا تمحى ذاتي.

وللعبد أسماء دنيّة, وأسماء عليّة, فأسماؤه العليّة, قد وصفه الله تعالى بها, بقوله : {ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ٺ ٺ ٿ ٿ}[1]

وبقوله: {ڈ ڈ ۀ ۀ ہ ۂ ۂ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ}(2)

وأسماؤه الدنية معروفة: كالعاصي, والمذنب, والفاسق, والظالم, وغير ذلك، فكما تمحق أسماءك الدنية بأسمائك العلية كذلك تمحق أسماؤك بأسمائه, وصفاتك بصفاته، لأنّ الحادث إذا اقترن بالقديم, فلا بقاء له، إذا ناديته باسمه كقولك: يا غفور, يا توّاب, يا قريب يا وهّاب، فاستدعيت بها العطاء لنفسك، وقد تنزّلت لنفسك من أسمائه، وكذلك إذا لاحظت أسمائك الدّنيّة من المعاصي, والظّلم, والفسوق, فاشتغلت بسترها, ومغفرتها فأنت باق مع نفسك، وإذا ناديته باسمه العلي, ولاحظت صفته العلية قائمة بذاته, محقت

---

(1) سورة التوبة:112

(2) سورة الأحزاب:35

أسماءك كلّها, وانعدم وجودك؛ فصرت محوًا لا وجود لك البتة، فذاك محلّ الفناء والبقاء بعد الفناء, قال تعالى: {ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ}(1)

قال Δ: " كنت ذات ليلة, متفكّرًا بالفكرة الغيبيّة, فأفادني الله علمًا جليلًا, وسعيت في الغيوب سعيًا جميلًا, فقلت في نفسى: أليس هذا خيرًا من الدخول في الحوائج للخلق مع الخالق, والكون مع الله أتمّ من الكون في الحاجات للناس, وإن كان مأذونا فيها شرعًا؟

فبينما أنا كذلك, إذْ نمت فرأيت كأنّ السّيل, قد أحاط بي من كلّ جهة, يحمل الغثاء عن يميني, وعن شمالي, فجعلت أخوض؛ لأخرج منه, لم أر بَرًا أنفذ إليه من الجهات الأربع, فاستسلمت نفسى, ووقفت في السّيل كالسّاريّة, أو النّخلة الثّابتة, فقلت في نفسى: هذا من فضل الله أنْ أثبت لهذا السّيل, ولا يصيبني شيء من الغثاء, وإذا بشخص جميل الصّورة, يقول لي: إنّ من أحلّ التّصوّف التّعرض في الحوائج بخلق, واستقضاها من الملك الحقّ, فما قضاه الله شكرت, وما لم يقضه؛ رضيت, وليس قضاؤها الموجب للشّكر بأتمّ من عدم

(1) سورة الجمعة:4.

قضائها الموجب للرضا.

وقد علّمني الله علمًا قائمًا بذات نفسى، لا يفارقها، بل هو لازم لها، كالبياض في الأبيض، والسّواد في الأسود، وهو: الله لا إله إلا هو الواحد القهّار، ربّ السّموات والأرض، وما بينهما، العزيز الغفّار، فانظر الألوهيّة الفردانيّة، والوحدانيّة، والقاهريّة، والرّبوبيّة، والعز والمغفرة، وكيف لفّ هذا كلّه في كلمة واحدة؟ إنّ المغفرة لتنزل على العارف بالله، كالسّيل الحامل من الغثاء، ويثبّت الله فيها، وبها من يشاء، ولا يصيبه شيء من الغثاء.

فانتبهت من نومى، وقد وعيت السرّ العظيم، والحمد لله.

يقول رضى الله عنه أيضًا: فتح الله بشيء من الدّنيا؛ ففرحت لأستعين أو أعين بها، فجعلت أحمد الله وأشكره، والشّكر: معرفة قائمة بالقلب، وذكرها قائم باللسان، كنت أجمع بينهما، فواظبت على ذلك وقتًا من الليل، ونمت فرأيت أستاذي ¬ تعالى، يقول :

استعذ بالله من شرّ الدّنيا إذا أقبلت، ومن شرّها إذا أدبرت، ومن شرّها إذا أنفقت، ومن شرّها إذا أمسكت، فجعلت أقول ذلك، فوصل الشّيخ كلامي فقال: ومن المصائب والرّزايا، والأمراض البدنيّة والقلبيّة، والنّفسيّة، جملة وتفصيلا بالكليّة،

وإن قدرت شيئًا فاكسني جلال الرّضا, والمحبّة, والتّسليم, وثواب المغفرة, والتّوبة, والإنابة المرضيّة.

يقول Δ آخرًا : رأيت كأن رجلا جاء إليّ, فقال لي : إنّ السّلطان يأتي إليك, فقل:

اللهمّ القِ على من زينتك, ومحبّتك, وكرامتك, ومن نعوت ربوبيّتك, ما يبهر القلوب, وتذلّ له النّفوس, وتخضع له الرّقاب, وتبرق له الأبصار, وتبتدئ له الأفكار, ويصغر له كلّ متكبر جبار, ويسجد له كلّ ظلوم كفار. يا الله, يا مالك, يا عزيز, يا جبار, يا الله, يا أحد, يا واحد, يا قهار.

خاتمة

يقول الدّكتور عبد الحليم محمود :

إنّني أرى في صراحة: أنّ هؤلاء الذين يكتبون عن الصوفيّة, فيتحدثون عن الوسط والبيئة, وعن الأساتذة والشّيوخ؛ ليقولوا بعد ذلك أنّ الصّوفي تأثّر وقلّد, وأخذ. وأنّ فكرته هذه يدين فيها لفلان, وفكرته تلك يدين فيها للوسط الفلانيّ..

إنّ هؤلاء الذين يدينون بالآليّة في الفكر الصّوفي, أو بأنّ الصّوفي مرآة تعكس صورة المجتمع, والمريدين, وتنعكس فيها أفكار المجتمع, والشيوخ, ويأخذون في تحليل آراء الصّوفي, وتفصيلها وتشريحها؛ من أجل أن يعزو كل فكرة إلى مصدر, يختلف عن مصدر الفكرة الأخرى للصّوفي نفسه, إنّ هؤلاء الذين يصنعون ذلك مخطئون.

فالصّوفي لا يكون صوفيًا بالقراءة أو الدّراسة أو البحث, حتى ولو كانت هذه القراءة والدّراسة فى الكتب الصوفيّة نفسها, وفى المجال الصّوفي خاصّة, وقد يكون شخصا من أعلم النّاس بهذه الكتب, درسها دراسة باحث متأمّل, وعرف قدميها وحديثها,

وميّز بين الزّائف منها، والصّحيح، وصنّفها زمنًا، وميّزها أمكنة.. وهو مع ذلك لا سهم له في قليل، ولا في كثير في المجالات الصوفيّة.

لقد درس الإمام الغزالي كتب الصوفيّة المحقّقين، درسها دراسة تعمّق وتأمّل، ثمّ اعترف بأنّ ذلك لم يجعله صوفيًا، ولو اقتصر على القراءة، مهما كانت عميقة لما كان له في التّصوّف نصيب، ليس قراءة كتب الصوفيّة سلمًا يرقى به الإنسان في معارج القدس.

وابن سينا درس التّصوّف في كتبه الأصليّة وخالط الصوفيّة، وكتب في التّصوّف فصولًا، توّج بها كتابه، ومع ذلك لم يصِرْ ابن سينا صوفيًا، ولم تجعله دراسته للتّصوف، وكتابته عنه في عداد الصوفيّة.

ثمّ إنّه قد يكون الصّوفي أمّيًا، لم يقرأ فلسفة، ولم يجهد نفسه في بحث.

التّصوّف ليس ثمرة لثقافة كسبيّة، والوسيلة إليه ليست هي الثّقافة، ولكن الوسيلة إليه إنّما هي العمل، والطّريق إليه إنّما هو السّلوك.

والمعرفة الناشئة عن العمل والسّلوك هي إلهام، وهي كشف،

وهى ملأ أعلى, انعكس على البصيرة المجلوّة, فتذوّقه الشّخص حالًا, وأحسّ به ذوقًا, وأدركه إلهامًا وكشفًا.

يقول الأستاذ ردينيه جينوا الفيلسوف الفرنسي المعروف: " ولا بدّ في التّصوّف من شرط جوهري, هو التّأثير الرّوحي, أو بتعبير أدق البركة, وهى لا تتأتى إلا بواسطة شيخ, ومن هنا كانت الطّرق, ومن هنا كانت السلسلة, وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد, يوشك أن يصبح شيخًا فيؤثر بدروه في مريد أو مريدين؟ "

ويعنى بالبركة: السرّ الذى ينتقل من الشّيخ إلى المريد, حينما تلتقى يد المريد بيد شيخه معاهدًا إياه على الاستقامة.

وإن كان هذا الفيلسوف يرى ضرورة الشّيخ من أجل السرّ, فإنّ الإمام الرّازي يرى ضرورة الشّيخ؛ لأن "من سلك الطّريق, وعرف مراحلها ومنازلها, واطّلع على متالفها ومعاطبها, أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السّبيل, والإخبار عن كيفيّة تلك الأحوال على التّفصيل.

وأخيرًا..

إنّ حياة أبى الحسن الشّاذليّ حينما يتأمّلها أي إنسان؛ فإنّه يجد فيها ما يصحّح الأفهام الخاطئة الشّائعة عن التّصوّف, لقد

أشاع المادّيون, على اختلاف ألوانهم كثيرًا من الأباطيل ضدّ التّصوّف, وأخذوا يروجون لها فى كلّ مكان, وبكلّ وسيلة فتعلّقت بأذهان كثير, ممن لم يصادفهم التّوفيق فى الوصول إلى صورة صحيحة عن التّصوّف.

والتّصوّف في النّهاية هو: الاسترسال مع الله على ما يريد, وهو متابعة الرّسول ؑ على ما يحبّ, هذا باعتباره وسيلة وطريقًا.

وهو قرب من الله, ومشاهدة التّوحيد باعتباره الغاية.

ويلخص هذا وذاك شارحًا الطّريق والغاية, وراسما حياة كلّ صوفيّ الحديث القدسي وقد رواه إمام المحدّثين, أبو عبد الله, البخاري في أصحّ كتاب بعد كتاب الله تعالى, وهو عن أبى هريرة Δ قال : قال رسول الله ؑ, فيما يرويه عن ربّ العزّة "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأعيذهن".